

روايات رومانسية عالية
عبير



مارغريت روم



NLO

اللميسات الحاملة



مكتبة زهر

liilas.com

اللمسات الحاملة

هل صحيح

ان هناك حباً من النظرة الأولى ؟

تامي وقع قلبها صريع الهوى حين لمحت آدم الذي لم يعرها التفاته . كانت جميلة وفاتنة وغنية لكنه اهملها ، ولم يقل لها كلمة . وحين دبر والدها قضية زواجها من آدم ، كانت متفائلة بأن الأيام ستجعله يخر عند قدميها طالباً عطفها وحبها ، ولكن مارد الجبل ظل نائماً ولم يلتفت الى عروسه المحترقة بنار اللوعة . قال لها : بعد سنة تحصلين علا الطلاق و تعودين الى حريتك . قالت له احبك وسيتحطم قلبي اذا تخليت عني . ومرت الأيام واقتربت السنة من نهايتها . فعلت تامي كل ما في وسعها لجذب اهتمام آدم وارضائه وشده اليها . قال لها النسر لا يكون سعيداً الا متى خلق وحيداً في الفضاء الواسع . وتذكرت هي الحكمة القائلة : خلق الله الرجل وحيداً ، ثم خلق له المرأة لتزيد من وحدته . زراعة طريق الحب بالورود تتطلب شهوراً ، وتامي لم يعد امامها من سنة زواجها سوى يوم واحد . فهل يكفيها لتصل

الى قلب آدم ؟
LIILAS.COM

مكتبة ليلاس

جمهورية مصر العربية

١٥ شارع الشيخ محمد عبده - خلف الجامع الأزهر

ت : ٥١٤٢٩٥٥ - موبايل : ٠١٢٣٧٨٦٤٨

١- رائحة الاغنام

اجتاز المدخل بخطى واسعة كأنه نفحة ريح جبلية نقية، تشق طريقاً وسط القاعة العابقة بمزيج من رائحة الدخان والعطور. وفوراً تناست تامي الاصوات الدائرة حولها. رنين اقداح المرطبات، وضحكة الرضى الخافتة الصادرة عن والدها وهو يقص طرف سيكار فانخر، وتسمرت عينها على الغريب الأسمر تراقبانه وهو يسير قدماً في القاعة، ثاقب النظرات، يدور برأسه الشامخ باهتمام فائق بين جماعات المدعوين.

تلاشت الاصوات اذ أخذ الافراد يشعرون تدريجاً بوجود الغريب المديد القامة، وراحوا يرمقونه بامتعاض لأنه بغطارسته كمن يقول: من كار " جل الامصل هنا قبل دخولي؟

لم تكن تامي بحاجة للالتفات حولها. عدد ضئيل من الرجال الحاضرين كانوا يفوقونه طولاً ببضعة سنتيمترات، وكان منهم من تضاهي مناكيبهم منكبهم عرضاً أو من يفوقه وسامة، إلا أنه لم يكن بينهم واحد يحيط به حالة الرجولة الصارخة المحيطة بهذا الغريب. وقالت في نفسها إن هذا الرجل هو ابن هذه الأرض الطيبة. ومع أن استدال سترته الأنيقة بلباقة على كتفيه وسلوكه المترفع دلّ على عدم كونه غريباً عن المجتمع، فقد كان في تصرفاته ما ينبئ عن عدم اتساع وقته لمثل هذه المناسبات الاجتماعية، وإنه ربما يأنف الانحاة لها إيجاد سبيل إلى وقته الثمين.

وهفت إحدى الصديقات هامسة:

«يعجبني، يعجبني يا تامي، عرّفني عليه، أرجوك».

«لن يتم لك ذلك، هذا الرجل لن يكون إلا لي».

ترددت هذه العبارات في مخيلتها.

ارتسمت على شفيتها ابتسامة غامضة، وتظاهرت بعدم سماع ما

قالت الصديقة وأجابت:

«استأذنيك في الذهاب للاهتمام بهذا الضيف الذي وصل متأخراً».

وكان منها أن تقوم، ولو لمرة واحدة، بواجبها كمضيفة بأسلوب يحوز إعجاب والدها وتقديره، فانطلقت نحو الضيف الواقف في وسط القاعة لا يبدو عليه الانزعاج من عزله.

انطلقت نحوه مدركة أن ثوبها الصوفي الفضفاض ينسجم وقوامها المتناسق المشوق، وبصورتها المبحوح الذي قال العديد من المعجبين إنه غلاب. سألت:

«هل أحمل إليك كوباً من المرطبات يا سيد... آسف لا أعرف اسمك. ادعى تامي ماكسويل وانت، أحد أصدقاء والذي على ما أظن؟».

عندما استدار نحوها بدا عليها شيء من الزهو بانتظار سماع

الاعجاب السريع الذي كان عادة يتبع تقديم نفسها إلى رجل لائق. وما إن استقرت عيناه عليها حتى شعرت بالأرض تميد تحت قدميها واكتفتها عاصفة من الأحاسيس، وشعرت وكأن رأسها في دوامة جارفة.

حاولت أن تتمالك نفسها، وتحيلت كيف ستضحك صديقاتها إذا حاولت أن تصف لمن هذه التجربة المثيرة.

ومضة من البصيرة حلت إليها الحل لمشكلة شغلها شهوراً عديدة. لم تستطع تفسير تلكؤها في مجارة رفيقاتها اللواتي يعتبرن الانحلال الخلقي عنصراً ضرورياً في الحياة العصرية. ولكنها لم تتمكن بعد من اقران القول بالفعل. كشابة متحررة، جاهزت باصرار، بإيمانها بحق المرأة بالحرية في كل شيء.

جاء رده كدفقة من الماء البارد. كان يمكن لحيوان قذر أن يسترعي اهتمامه أكثر مما استرعته الفتاة ذات الشعر المعقوص بشكل قبعة ناعمة، تتهدل فوق جبهة عريضة، وذات العينين العسليتين الساحرتين، والانبف الشامخ، والتي هي محط انظار معظم الرجال. هذا الرجل ليس واحداً منهم. قال باقتضاب:

«تشرفتنا، آنسة ماكسويل، ادعى آدم فوكس، إذا كان والدك هو جوك ماكسويل فيكون هو من خاطبت هاتفياً في مطلع هذا المساء، ودعائي للحضور في الثامنة والنصف».

أزاح طرف كم قميصه لينظر إلى ساعته:

«تكرمي بإرشادي إليه، وقتي ضيق».

ولماذا لا تبقى وتشاطرنا العشاء؟».

وارتسمت على شفيتها ابتسامة مأكرة ثم تابعت:

«انصحك بذلك إن شئت بحادثة والذي في أمور تتعلق بالعمل، لأنه يكون أكثر ليئاً بعد وجبة فاخرة. ولا تدع هذا الحشد يمنحك من قبول دعوتي».

قالتها بطريقة اقرب الى التوسل واصافت:
«جاؤوا لتناول المرطبات فقط، وبعد قليل يرحلون، ولن يكون
الى المائدة سوى والدي، فاذا قررت مشاركتنا العشاء يمكننا تمضية
السهرة في التعارف بعد ان تنجز عملك».

ومرة اخرى ارتفعت اليد وانحسر الكم ونظر الى ساعته:
«يجب ان استقل القطار بعد اقل من ساعة».
«ويح» قالتها بينها وبين نفسها وهي تسير به الى حيث كان جوك
ماكوسيل يسرد مصاعب الحياة التجارية على جماعة من اترابه.
واشرقت اسارير سامعيه عندما اقتربت تامي وفي اعقابها شاب
مقطب الجبين.

«حفلة ممتعة يا عزيزتي، تبدين رائعة الجمال هذا المساء».

صدرت هذه العبارات عن رجل كهل.
ضاعت عينا جوك ماكوسيل. وكان من البلاهة بحيث لم يدرك ان
اللون الذي يكسو وجنتي ابنته مبعثه الانفعال، وقد لمحت عيناه
الخبيرتان دموع الغيظ تترقرق في عينيها. رمق الشاب الذي يرافقها
بنظرة تفيض فضولاً. ما من رجل في حياة ابنته الصاخبة استطاع ان
يخترق قوقعتها العصرية الى حد ابكائها. انفرجت اساريره اعجاباً
عندما قدمته تامي اليه.

«ابي، هذا السيد يقول انه على موعد معك».

«لا شك انك آدم فوكس».

قالها جوك باسم:

«يؤسفني اضطراري الطلب اليك بحث أمور العمل خارج
ساعات الدوام، ولكنك قلت ان وقتك ضيق فلم اجد مناصاً من
ذلك. تفضل الى مكثي فتبادل الحديث دونما ازعاج».

وافق آدم فوكس على الدعوة بايماءة من رأسه وغادر القاعة في
اعقاب جوك مخلفاً تامي وراءه يساورها شعور بكونها مهجورة في
واحة تغص بأناس اشبه بالذمى. ولمدة عشر دقائق راحت تتجول بين

الحضور وعيناها القلقتان عالقتان بباب مكتب والدها. وكم كان
ارتياحها عظيماً عندما قام أول المدعوين مودعاً، وما هي الا برهة حتى
خلت القاعة الا من نفر ضئيل منهم. ونظرت الى الفوضى التي تعم
القاعة واطلقت زفرة. كانت الحفلة ناجحة فلماذا ينتابها هذا الشعور
بالقلق وعدم الرضى؟

كان ستيف هاريس آخر المغادرين فمدت اليه يدها مودعة الا ان
نظراتها التائهة استرعت انتباهه.

«حفلة رائعة يا عزيزتي، ضمت العديد من الناس المثيرين
للإهتمام».

قال ذلك وربت على جيب سترته ثم اضاف:

«توفرت لدي مواد تكفي زاويتي في الصحيفة لعدة ايام».

وبلهجة عادية سأل:

«من هو ذاك الشاب المتعجرف؟ هل هو طريدتك الجديدة؟ لا
تكتمي الأمر عني. ثمة تفاهم بيتنا، هل تذكرين؟».

هذه العبارات أثارت حذر تامي، يحاول ستيف اصطيد المواد
للزاوية التي يحررها في احدى الصحف اليومية. كل صباح تلتهم
مثيلاتها التعليقات التي يحررها عن المجتمع اللندني، وكانت في
الماضي تسر اليه بمعلومات تجعله يجري كالمهوف لاستقصاء احداث
الفضائح، اما الآن فانها تعتبر تدخله عدائياً.

وقالت ببرودة:

«انه احد معارف والدي في العمل، فلا تتبادر معي لثلا تفقد
مورداً رئيسياً لمعلوماتك».

«لا تلوميني على محاولتي، خاصة انك الوحيدة التي لم تكن مرة
موضوعاً لاحدى مقالاتي، لانك لم تقترفي اية هفوة بعد».

نظر اليها ملياً وقال:

«يدهشني ذلك، فانت غارقة في الجو المتحرر، في فرنسا فيللا
فخمة تحت تصرفك، وهنا في لندن تملكين هذا المنزل ويحتأ دائم

الاستعداد للابحار، ولديك وقت فراغ غير محدود، والمال الوفير لتحقيق جميع رغباتك، ومغريات الوقوع في الخطأ كثيرة أحياناً. اما ان تكوني مثلاً للفضيلة او انك شديدة التكتّم؟

دفعت به عبر الباب للتخلص منه خشية ان يفتح باب مكتب والدها ويضيق منها افضل رجل لاح في افق حياتها.

«حديثك يضاهي كتاباتك سخافة يا ستيف، الى اللقاء».

لم يكن ما يدعوها للخوف، اذ انقضى ما يناهز الساعة قامت خلالها بتنظيف القاعة وترتيبها وفتحت النوافذ لتنقية جوها من الدخان، ثم جلست على مقعد وثير متظاهرة بتصفّح احدي المجلات، بينما كانت بالواقع تبذل جهداً فائقاً لكي تبدو رصينة. كاد صبرها ينقذ عندما فتح الباب وعاد آدم فوكس ووالدها الى القاعة.

«تامى، هلا اعددت غرفة الضيوف؟ لم يكن آدم ينوي المبيت هنا، ولكن حديثنا طال وفاته القطار فأصررت على مبيتته لدينا».

نظرت تامى الى والدها وقد تحدّد حبها لهذا الرجل المكتنز الذي يمكن الاعتماد عليه دائماً كحليف.

وقالت متلعثمة:

«بكل سرور، ساهتم بذلك حالاً».

بدت الحيرة على آدم فوكس، وبان الذهول في عينيه، غير ان صوته كان جارفاً:

«اكذبت لوالدك انه لا داعي لازعاجك، بامكاني المبيت في احد الفنادق».

قال جوك بركة:

«هراء يا بني، انا من الشمال واقدر لك تردّدك في القبول بمنّة من احد، وارضاء لكراحتك سأطلب منك خدمة بالمقابل».

سارع آدم الى القول:

«ارجوك ان تفعل».

رسخ لدى جوك اعتقاده بانه يتعامل مع رجل حاد الطباع فقال

آدم:

«كنت بالغ الكرم وخاصة في ما يتعلق بالعمل، واذا كان من سبيل لاظهار امتناني...».

قال والابتسامة تداعب شفثيه:

«هنالك يا بني، بعد قليل سأضطر للخروج وهذا يعني بقاء هذه الصغيرة وحيدة معظم فترة الليل. هل تنكروم بالبقاء برفقتها، وفي هذه الاثناء تريك المناظر الخلابة هنا؟».

لاح الاستياء على عيا آدم فوكس، وما لبث ان زال بعد ان بذل جهداً كبيراً وقال باقتضاب:

«بكل سرور».

اثار استخفافه غيظ تامى وكادت تنفجر غضباً، الا انها كبتت غيظها واجتازت محنة تجاهل آدم فوكس لها وقد كان طوال فترة العشاء يوجه حديثه الى والدها مباشرة. امارات الغم الممزوج بالغيظ البادية على محياها اطربت جوك وبكل خبث راح يطيل تعذيبها بتشجيع آدم

على الاسترسال في الحديث عن العمل، مما اضطرها للمشاركة في الحديث بعد عدة محاولات لتغيير الموضوع.

«هل تعاطى الاعمال التي يتعاطاها والذي يا سيد فوكس؟».

نظرتة اليها حملت الكثير من الدهشة، وكأنه كان يتوقع منها الالتزام بقيامها بواجبها كمضيفة فحسب. اجابها:

«ليس بالمعنى الصحيح، والدك يملك مصنعاً لغزل الصوف وحياته، وانا امثل مجموعة من مربى الاغنام على الحدود، ويعني ان ابيع الصوف. نربي الاغنام ونجزّ صوفها لتوفر المواد الاولية للاقمشة التي يحبوكلها ويبيعها والدك».

«هذا مجمع».

كانت نبرة صوتها كاذبة . . . فتابعته:

«عندما رأيتك أدركت انك من عبي العمل في العراء»

اجاب موافقاً:

«اني فعلاً امضي اطول وقت ممكن في جبال كمبريان».

قالت مستفسرة:

«جبال كمبريان».

اجابها وكأنه يتساءل ان كانت هناك جبال سواها:

«على الحدود الانكلوسكوتلاندية».

انفجرت اسارير تامي، واخيراً وجدت قاسماً مشتركاً بينهما؟

«هل سمعت ذلك يا ابي؟ ربما كان اسلافنا جيراناً!».

ووجهت حديثها الى آدم بحماس:

«تحدثر عائلة والدي من اناذيل على حدود سكوتلاندا

الجنوبية».

حتى جوك لاحظ ردّة فعل آدم لدى سماع هذا النبا، وتساءل عن

سبب ضغطه على شفّتيه والحركات العصبية التي يقوم بها بقبضتيه.

وللمحظة خبا بريق عينيه كما يحدث عندما تمر غمامة عبر الشمس.

وعندما انقشعت الغمامة كانت نظرة آدم اكثر اشراقاً وراحت تجوب

ملاعب جوك وكأنها تسير غورها.

قال بعبوس:

«ربما كنا فعلاً جيراناً، اجد شيئاً كبيراً بينك وبين صورة معلقة في

منزل احد جيرانتي وهي تمثل رجلاً يدعى جوك الاسود من اناذيل».

مال جوك الى الامام باهتمام قائلاً:

«كم اود ان اراها. انتقلت عائلتي الى هنا منذ جيلين عندما

افتتحنا اول مصنع للنسيج، ولكن انهماكنا في تنمية اعمالنا شغلنا

عن زيارة اقربائنا السكوتلانديين. كنت اجهل ان لي امثال هؤلاء

الاقرباء. اظنهم كانوا مرموقين».

ثم شيء في نظرة آدم الحادة افقدت ضحكته رونقها. فقال:

«كانوا معروفين جداً في ايامهم، ولا يزال اهالي الحدود يذكرون

مآثرهم حتى يومنا هذا».

ارتعد كيان تامي. كان صوته مرتعشاً ويبدو ان ما سمعه سبب له

صدمة، والعبارة التي استعملها لوصف اسلافها كانت بعيدة عن
الاطراء. كان بإمكانه وصفهم بالبارزين او بالمشهورين، ولكنه
اختار عبارة معروفين جداً. معروفين جداً بماذا؟ العديد من
للصوص والاوزاد كانوا معروفين جداً، وهذه الصفة يمكن ان
تنطبق على القتل أيضاً.

استبعدت تامي فكرة كونه نادماً على تعامله مع والدها. كان جوك

ماكسويل شهياً عندما يخطيء احد الذين يعجبونه، ويبدو ان هذا

الغريب المديد القامة قد حظي باعجابه، وهذا يقسر الرضى الذي

لاحظته تامي عليه لدى دخوله القاعة. واذا كان الغريب يمثل

مجموعة كما يقول، فهو لا يملك الحرية باتباع ميوله الشخصية، ولا

يمكنه الانسحاب من الصفة المعقودة حتى لو كان يتمنى ذلك، بل

يختم عليه الشرف وضع مصلحة مربي الاعنام فوق مشاعره

الشخصية.

٢- جروة منبوذة!

خيم جو من التوتر طوال فترة العشاء، حتى جوك قليل الملاحظة شعر بأن ضيفها غارق في افكاره، وتولاه ضيق شديد لأن آدم النكمش على نفسه لم يظهر أي ميل لتلطيف الجو.

بعد العشاء تولاه مزيج من الشعور بالاطمئنان والفضول فأسرع ليترك الساحة لتامي. أسلوب الرجل الشمالي القليل الكلام كان بعيداً عن الاستهتار، ومع ذلك كان جوك في اعماقه شديد الثقة، وضع كنزاً ثميناً من المزايا الحميدة لمن يرغب في التتقيب عنه. ولكن هل كانت ابته المدللة المتقلبة الاهواء تمثل القوة الكافية والعزم الحقيقي اللازمين لاختراق قوقعة الرجل الصلبة؟ من الواضح انها وقعت في حباله، ولهذا السبب أدهش الشاب باستعداده لشراء كل

NLO

ما لديه للبيع، وتعتمد اطالة الحديث الى ما بعد موعد القطار. تعودت تامي منذ ولادتها ان تحصل على كل ما يمكن شراؤه بالمال، وبما ان آدم فوكس لم يكن يرسم البيع فقد سلك هذا السبيل ليمهد الى المزيد من اللقاءات بينها في المستقبل متيحاً لها الانفراد بضع ساعات بالرجل الذي استهواها اكثر من أي رجل آخر.

قال وهو يتجه نحو الباب:

«المنى لكما وقتاً ممتعاً، سأعود في حوالى الساعة الواحدة».

سيطرت على تامي أحاسيس شتى، فتهافت على اريكة وثيرة وفرشت ثوبها حولها وخيل اليها انها تكاد ان يغشى عليها، ولكنها تمالكت نفسها وربت على المكان المجاور لها وبابتسامة رقيقة دعتة للجلوس قائلة:

«اجلس هنا، واخبرني بكل شيء عن نفسك يا سيد فوكس. كلا، الا تعتقد ان اسم آدم افضل؟ والافضل ان تناديني باسم تامي».

لوححت وجبتها حمرة الحجل عندما تجاهل دعوتها واختار الجلوس قبالتها، تفصل بينهما سجادة كبيرة.

وبصوت رخيم قالت:

«وما الذي تنوي عمله، مشاهدة مسرحية أو ارتياد احد المقاهي أو التجول في المدينة والاستمتاع بمباهجها؟».

فأجاب:

«بالنسبة الي، لندن تفتقر الى المباهج، وأجد احراجاً في مشاهدة المسرحيات المعلن عنها، واعتبر المقاهي مثيرة للسأم، اما المباهج الحقيقية فأجدها في اوساط تختلف كلياً عن تلك التي ذكرت».

قاوت تامي سخطها وازداد انفعالها شموخاً، ولو كان النكمش رجلاً سواء لأجابه بانه فظ لثيم، وكانت هاتان العبارتان تراودان لسانها وعلى اهبة الانطلاق إلا ان وسامته لجنتها مرة أخرى، ووجدت نفسها غارقة في العينين الزرقاوين الخلابتين.

ولا شك ان هناك ما ترغب في عمله، إلا اذا كنت تفضل غمضية الأمسية هنا.

تفوهت بهذه العبارات بدواعة فائقة.

سرعة نهوضه اعربت عن نيده لتلك الفكرة.

وارغب في تنشق الهواء الطلق. هل من منزله قريب هنا؟ والأبامكاننا المشي على ضفة النهر.

والمشي؟

رددتها بصوت خافت. لم يسبق لحذائها الثمين ان لامس الطريق، ومع ذلك عندما اوماً ايجاباً هبت على قدميها واندفعت نحو غرفتها.

ويجب ان ارتدي ثياباً أكثر دفئاً، امهلني خمس دقائق.

راعها هذا الارغاف في يديها وهي تتخلع عنها ثوب السهرة الانيق، وراحت تبحث في خزانها عن ملابس مناسبة للتجول في الشوارع في هذه الأمسية الباردة.

كانت خزانها تغطي جداراً كاملاً من غرفتها، وتغص بعشرات الاثواب الانيقة، وجميعها صممت للارتداء في الأوساط الراقية حيث تحضي تامي معظم اوقاتها.

ولكنها اشاحت عنها جميعاً، ثم تذكرت رحلة التزلج التي قامت بها في العام المنصرم والملابس الكثيرة التي ابتاعتها لتلك الرحلة، فاندفعت الى الطرف الاقصى للخزانة وفتحت بابها، بذلات وسترات وقمصان صوفية سميقة، كانت الخادمة قد كدستها تحت الاغطية القطنية، فتناولت اول بدلة وصلت اليها يدها وارتندها. توقفت امام المرأة لحظة قبل ان تهول خارجة:

«لا بأس».

قالت ذلك مشية على صورتها في المرأة وقد سرها ان البدلة ابرزت جمال قوامها وان قماشها الصوفي الزاهي اللون يتناسب وشعرها الكستنائي الناعم.

وهذه البدلة ستلفت انتباهه اليّ حتماً.

قالت ذلك بحماس واستدارت على عقبها يحدها شوق لمعرفة تأثير جهودها عليه.

كان آدم فوكس ينتظر بفارغ الصبر، وقد امتدت يده الى الباب عندما اجتازت السجادة راكضة نحوه.

«خمس دقائق، كما وعدت».

وارتسمت على شفثيها الابتسامة الخلاصة التي تحتفظ بها لوالدها، ولما كانت تتعلم حذاء منخفض الكعب امالت برأسها الى الوراء لتتأمل الى وجهه الذي لوحته الشمس وانتظرت بترقب، مشدودة الاعصاب، وعندما اجابها بدون اهتمام:

«هيا بنا».

شعرت وكأنها جروة قلعة منبوذة.

بعد ساعتين من الهولة في الطرقات، في محاولة لمجاراة خطاه الواسعة، ادركت تامي ان الغاية من ذلك هي ارهاقها جسدياً. وكان آدم فوكس بين الحين والآخر يلقي على محياها نظرة عابرة قبرى امارات الألم باقية عليه ويرتسم على شفثيه طيف ابتسامة شامتة. في البداية، نبذت فكرة كونها ليست اهلاً له، ولكن كلما كان غمها يزداد حدة ازدادت امارات الرضى وضوحاً على محياه مما جعلها تتميز غيظاً.

وجارته الخاطي بكل عناد فيها تزاوجت الافكار في رأسها. لم تتعرض في حياتها الى هذه المعاملة الخشنة وخاصة من الجنس الآخر. من البديهي انه كان يحترقها ويحتقر الطبقة التي تنتمي اليها، وهذه هي طريقته الوضيعة في الاعراب عن ازدرائه، تمنعه عجزه من مشاهدة مسرحية، ويرتفع عن ارتياد المقاهي، ودقيق جداً في اختيار مرافقيه. كان آدم فوكس المتعجرف، المعادي للمجتمع بحاجة الى من يستغزه ليقطع عن هذه الصفات البغيضة، وكانت هي الكفيلة بذلك.

وحصل الاستغزاز بسهولة وبدون توقع.

توقف فجأة ليواجهها بقوله:

«في الواقع يا ابنة المجتمع المخملي، لأول مرة في حياتك تبذلين جهداً جسدياً، والواضح انك لا تجهدين متعة في ذلك، هل استدعي سيارة اجرة تعيدك الى الشقة؟ بذلك تساهمين ولو قليلاً بعمل اجتماعي وهو مساعدة سائق السيارة على كسب عيشه».

هذا السيل من العبارات الجارحة جعلها تحبس أنفاسها. ولما حاولت الكلام كان عقلها يعمل بالسرعة والدقة اللتين امتازت بهما والدها الذي شهد له الكثيرون بكونه يملك اذكى عقل تجاري في بريطانيا بأسرها.

كانا يجتازان احد الجسور عندما توقف فجأة، واختفاء لامتعاضها انكثت على السياج وراحت تنظر الى تدفق المياه الداكنة.

«يؤسفني احتقارك لي، هل من عادتك الاستنتاج بسرعة؟».

«أكون اعمى وأصم اذا لم اعرف اي نوع من الناس انت، فراشة مجتمع، طفيلية، تأخذين ولا تعطين شيئاً بالمقابل. صحيح انك جميلة ولكنك ثقافة، انانية، انت تشكلين مخسرة تامة للجنس البشري».

«يا لسعة ادراكك!».

قالتها وفي حلقها غصة وقد تولاها غضب شديد من نفسها لان عينيها الغروقتا بالدموع. لماذا تبالي برأي هذا الخطاب المتخلف؟ انها فتاة مرغوبة ويتمناها عشرات الرجال الذين يفوقونه وساعة ولباقة، فلماذا انكمشت تحت لسعات ازدوائه لها؟ قالت له:

«لو... ان أريك شيئاً قبل ان نعود الى الشقة، وأؤكد انه سوف يستهويك وهو ليس بعيداً. جاري في ذلك، ان لم يكن ارضاء لي فاكراً لوالدي».

ذكرها لوالدها اصاب وتراً حساساً لديه. لا شك ان الصفقة المعقودة بينها تضمن ربحاً كبيراً لجماعة مربي الاغنام ما دام يمثلهم

ييدي هذا العرفان الفائق بالجميل.

فقال باستخفاف:

«سيري امامي».

كتمت تامي فرحتها بهذا الانتصار وسارت به نحو سلم ينحدر صوب النهر حيث اصطفت اعداد كبيرة من الزوارق الصغيرة، وسار خلفها يدفعه الفضول، وعندما توقفت مشيرة الى زورق فخم جميل، ارتفع حاجباه دهشة وتبعها الى متن الزورق من دون ان يفوه بكلمة، ثم هبطاً سلباً الى المطبخ فأشارت بيدها الى المساحة الصغيرة وقالت:

«هلاً اعددت لنا الشاي بينما اذهب لاقتراض زجاجة من الحليب؟».

قالت ذلك وقفلت راجعة الى سطح الزورق بدون ان تنتظر رداً منه، وتركته يبحث بفضول في المساحة الضيقة التي تحتوي على طاولة الى كل جانب منها مقعد وثبر يمكن تحويله الى سرير، وعلى مطبخ حسن التجهيز بخزان حافلة بالمواد الغذائية.

وعادت بعد نصف ساعة تحمل نصف زجاجة من الحليب، وكان آدم فوكس قد اعد ابريقاً من الشاي ووضع فتجانين على المائدة. «تدهشني اعتبارك للذهاب ضرورياً، الحزاة تغص بالحليب المملح».

تولى تامي الحياء وسارعت الى القول:

«افضل الحليب الطازج، فالحليب المملح يفسد نكهة الشاي».

شعرت بالارتياح عندما تقبل تفسيرها:

«اعتقد ان هذا الزورق هو العربة اخرى اشتراها والد متساهل».

«انه ليس العربة، بل احبه وامضي ساعات طويلة اجوب به

النهر».

«بفردك؟».

«غالباً».

«تدهشني، لم يخطر لي انك تحبين الوحدة».

NLO

«ولكنك لا تعرف عني إلا القليل، واستنتاجاتك مبنية على آراء وهمية، لا على معرفتك الشخصية».

تجاهل قصدها.

«الزوارق تنتشل من الماء في الشتاء عندما لا تكون قيد الاستعمال ويجب حمايتها من الطقس بقدر الامكان».

«اعلم ذلك، ولكنني استعمله على مدار السنة وليس فقط في الصيف، واقوم باعمال كثيرة لصيانتها، ثمة خير يكشف عليه بين الحين والآخر، وانا اقوم برأب الشقوق وطلائه بنفسي».

نظرة عدم التصديق التي بدت منه كانت مثيرة للغضب فهت على قدميها تاركة فنجان الشاي على المائدة، وصعدت الى سطح الزورق. شعرت بموجة من السرور تسري في شرايينها عندما ادارت المحرك وراح صوته يتردد في مسامعها. ويلطف فائق ابتعدت بالزورق عن المرسى المزدهم أخلة بعين الاعتبار ان اي احتكاك بزورق قد يخلّف بوجبة الطعام ارضاً. وعندما تأكدت ان عمرها خال انطلقت بالزورق الى عرض البحر.

وما هي إلا ثوان حتى لحق بها كما كانت تتوقع.

«ما الذي تفعلينه؟»

تعالى صوته فوق ضجيج المحرك.

«البحر ليس مكاناً للمبتدئين».

وسرعة التفت يمينا ويساراً متفحصاً الانوار على الجانبين، وبذلك كشف عن معرفته لقوانين البحار مما أثار حمية تامي.

«لا تقلق، فقد درست التقويم البحري، وجدول المد والجزر ونظام العوم ولذا يمكنك الاطمئنان معي».

كان سبر غور الظلام تسلية خطيرة بينما كان الزورق القوي يتطلق تحت توجيه يديها الماهرتين. لا وجود آدم فوكس المحترق غيظاً ولا شنائمه التي كانت تصفع مسامعها، استطاعت القضاء على شعورها بالقوة وسيطرتها التامة على هذا الرجل المتصلّب.

كانت تتوقع موقفاً ظريفاً عندما تبدر من المحرك اولى اشاراته بالتوقف، وكان عليها ان تبذل جهداً فائقاً لابعاد رنة الشمانة عن صوتها وهي تحيب على سؤاله:

«ما الأمر؟».

بقولها:

«لست ادري، لم ادرس فن الميكانيك البحري».

«يا الهي!».

كان تصلبه لينا اذا قورن بنبرة صوته الغاضبة، وفي تلك اللحظة توقف المحرك كلياً، غلغلاً وراءه صمتاً رهيباً.

«ما الذي حدث في رأيك؟»

سأله بوداعة وهي تتسلل من جانبه مبتعدة عن قامته الضخمة.

فأجاب متجهماً:

«جهاز ادارة المحرك او الضغط او الوقود، ابي اشكر الله لكوننا بعيدين عن الخط الرئيسي لممر السفن! ولكن على سبيل الاحتياط راقبي جيداً بينما اكشف على المحرك».

هزت تامي كتفيها حابسة ضحكة راودتها، بينما راحت تراقبه وهو يكشف على المحرك، وعندما اقتنع بأنه غير معطل حول اهتمامه الى جهاز الضغط وكأخر سهم في جعبته حل انبوب الوقود.

تشنجت وهي تتوقع ان يتفجر غاضباً، ولكن عندما استدار ليواجهها كان صوته هادئاً الى حد لا يمكن تصديقه.

«نفد الوقود... الخزان فارغ».

«آه، يا لحماقتي!».

كان ارتجاف صوتها حقيقياً لا تصنع فيه.

ولا بأس، منسطر الى المبيت على متن الزورق وفي الصباح نجد من يقطره لنا».

خيم صمت طويل. مشحون بالترقب، وراحت تتعلمل باضطراب، واخذت تتسائل عن الافكار التي تتراحم وراء عيونه،

NLO

والعبارات اللاذعة التي مستطلق من فمه . وبجهد استطاع السيطرة على نفسه وجعل رده عبارة مقتضبة :

«اهبطي انت، سامضي الليلة على سطح الزورق» .

واعترضت قائلة :

«ولكن البرد شديد» .

«اهبطي يا أنسة ماكسويل» .

«سأفعل، ولكن لا تلمني اذا انهزم المطر عليك» .

أضمت الساعات مستلقية على الاريكة مصغية الى وقع خطاه على سطح الزورق . ولما لاحت تباشير الفجر راحت تشجع نفسها على مواجهته، ولكنها رأت أن أفضل وسيلة لتهدئة الوحش الشاثر هي اعداد افطار شهوي له .

وسريعاً ما عقب الجويراتحة الطعام المؤلف من البيض واللحم، وكالمغناطيس اجتذبت اهتمام الرجل الكلليل العينين فهرع الى المطبخ وطوق فنجان القهوة الساخن بأصابعه المتجمدة . نظرة واحدة الى عينيه الزرقاوين المنفلقتين انبأتهما بأن الوقت غير مناسب لتقديم الاحتذار، وبدون أن تفوه بكلمة وضعت امامه صحناً حافلاً بالطعام، وانتظرت بصمت الى ان التهم كل محتوياته .

«ايها القوم» .

وصلها هذا النداء بوضوح عبر المياه . وتقابلت عيونها ثم قفز آدم مندفعاً الى سطح الزورق ولحقت هي به . كان ثمة زورق دورية نهرية بمحاذاة زورقها .

«هل انتما في مأزق؟» .

انطلق هذا السؤال من مكبر للصوت .

وأجاب آدم :

«يلزما من يقطر لنا الزورق، هلاً اسديتم لنا هذا الجميل؟» .

وكان الجواب :

«بكل تأكيد، سنرسيكم بأسرع ما يمكن» .

بعد ساعة بر طاقم الزورق بوعده واعادها الى مرسأهما سالمين، ولوحا بأيديهما للطاقم شاكرين مودعين . تقبل الرجال قول آدم ان الزورق قد نفذ منها ساخرين، ولحسن حظ تامي كانت عبارات السخرية معدودة، ولكن بينما كان منقلوبهما يرحلون شعرت بأن صبر آدم قد نفذ .

وبينما كانا يترجلان الى الشاطئ، ثمة ساعة اعلنت الخامسة . تتم قائلاً :

«سكون محظوظين اذا وجدنا سيارة اجرة في هذه الساعة المبكرة . استعدي لمسيرة طويلة للعودة الى الشقة» .

لأول مرة منذ ساعات نظر مباشرة الى عيائها الرصين . ردت اليه النظرة بأخرى جريئة وقد ندمت على تسرعها . خوفها من الانتقام منعها من الاقرار بان ما حدث لم يتعد كونه مزاحاً .

ومضة من النور بهرت عينيها، ولأول وهلة عزت ذلك الى تأثير آدم على مشاعرها، وعندما أدار رأسه تبعت عيناها الاتجاه الذي تركزت عليه نظراته المتفعلة .

لوح ستيف هاريس بألة التصوير وعلى شفثيه ابتسامة عريضة . «صورة أخرى على سبيل الاحتياط» .

وابتسم ثانية قبل ان تلتقط الآلة صورة ثانية لها وهما في حالة الدهول الشديد!

٣- حرب بين قليين

نادراً! كانت تامي تشارك والدها طعام الافطار، ولذا بدت عليه الدهشة عندما رآها تجلس في المقعد المجاور له. لم يكن للسهر أي أثر على عيائها باستثناء تعب طفيف في عينيها، زال عندما جالت ببصرها في عيائها الهادئ. كان من الواضح انه يجهل ما جرى في الليلة المنصرمة.

أكد لها ذلك من تحيته:

وطاب صباحك، هل أمضيت سهرة ممتعة؟ أنا آسف لعودتي متأخراً اذ حدث ما اخرني. ارتسمت على شفيتها ابتسامة غامضة. سيئة والدها الوحيدة، اذا جاز التعبير، هي حبه للعب الورق حتى مطلع الفجر، وليس في هذا

NLO

ما يضير، الا انه يأبى الاقرار بذلك.

«لا بأس يا ابني، انا ايضاً تأخرت بالعودة».

وقبل ان تباشر بتفسير ذلك اطلق ضحكة العالم بالأمور قائلاً:

«لا تكوني ابنة ابيك اذا لم تنتهزي الفرصة لله في حياتها لك. ذلك الشاب يعجبك، اليس كذلك؟».

قال ذلك ضاحكاً وراح يدهن قطعة خبز بالزبدة واطاف.

«لأول مرة اوافق على اختيارك، ولذلك خرجت عن المألوف لأوفر له صفقة جيدة. كما تعلمين، اترك أمور المشتريات الى الموظفين المتقدين، ولكنني في هذه الصفقة قبلت بالخسارة، ليس بدافع العطف على الشاب الذي توصل كثيراً بالنيابة عن شركائه طلباً لسعر افضل من ذلك السائد في السوق، بل لثقتي من انه بعد عقد الصفقة سيضطر للعمل بجميع اقتراحاتي. والان، اخبريني، هل نجحت خطتي؟»

قالها وهو يقضم قطعة الخبز.

«هذا ما أود محادثتك فيه يا ابني».

وراحت تامي تداعب منديلها بعصبية ظاهرة، لأول مرة في حياتها لم تكن واثقة من ردة الفعل لدى والدها. كانت على وشك الابتداء بالشرح عندما قوطعت للمرة الثانية برنين جرس الباب. وترددت، غير راغبة في استئناف الحديث قبل ان يوليها والدها كل انتباهه. انتظروا بصمت الى ان ادخلت الخادمة الزائر، ثم نظروا بدهشة عندما دخل آدم فوكس الغرفة بخطى ثابتة تحدوه رغبة فائقة في الاسراع بالرحيل.

«آدم! كنت اظنك لا تزال نائماً!».

«كلا، اكون عادة قد انجزت نصف اعمال اليوم في مثل هذه الساعة. ذهبت الى المحطة للاستفسار عن مواعيد القطارات، هناك قطار يتطلق بعد ساعتين وذلك يتناسبني تماماً».

جوك، الذي يعرف طباع ابنته جيداً نظر اليها وتساءل عن سبب

اهتمامها المفاجيء بمحتويات صحتها. ليس من عادتها ان تتحاشى نظرة حد. ولاحظ ان آدم لم يرمقها بنظرة واحدة، وبدا ان رغبته في الرحيل تهدى كل تهذيب. ولما شعر بان وجوده غير مرغوب فيه تابط الصحيفة وغادر لظائفة انه لا يفهم اساليب شباب اليوم، يسرهم ان يظهروا غير ما يبطون.

سأراك قبل رحيلك.

قالا وهو يتجه نحو غرفة الجلوس سائطاً لسوء استفلال تجاهله. عندما اصبح آدم وتامي وحدهما اخذا يتبادلان النظرات، يسيطر على آدم الجفاء والبرود. وتامي يأكلها الارتباك والاحراج. «هل يعلم؟»

وتحركت عضلة في وجه آدم.

«يعلم ماذا؟»

حاولت كسب الوقت وكان يعرف ذلك. صرخة غضب مفاجئة من غرفة الجلوس اكدت لتامي ما كانت تخشاه. «اصبح يعرف».

قالت هانسة واعدت نفسها للمجابهة التي لا مفر منها.

بدت على آدم دهشة مثيرة للضحك عندما اندفع جوك الى الغرفة وهو يصرخ غاضباً وملوحاً بالصحيفة، وكادت تامي ان تنفجر ضاحكة.

«ما معنى هذا؟»

ولوح جوك بالصحيفة امام عيني آدم:

«اريد تفسيراً... اريد تبريراً مقتنعاً».

كان آدم يستعد للرد واذا بعينيه تقعان على صورة تمثل رجلاً وفناً يبدو عليها التعب والشعور بالذنب، وتحت الصورة ملاحظة لازعة تقول: «ماذا سيقول الوالد؟»

وتحت ذلك ويحرف اصغر حجماً كتب متيف كلاماً حافلاً

NLO

بالسخرية. الجميلتان اللتان لمحتها تامي من فوق كتف آدم بكات كافيتين لتفسير امتناع لونه: «ابنة المجتمع المخملي تمضى الليل على أمواج البحر، الأنسة ماكسويل تقع اميرة شاب فائن من الشمال. هل تصدقون ان عذرهما هو نفاذ الوقود من زورقهما؟»

وتبأ له.

وعصر آدم الصحيفة بقبضتيه القويتين:

«سوف ادق عنق ذلك الصحافي اللعين».

اطلق جوك زفرة حارة وقال:

«هلا ابديت لي عذراً يمنعي من دق عنقك؟»

حلق به آدم وقال:

«انك حتى لا تصدق هذه السخافات».

صرخ جوك غاضباً:

«لا يهم ان صدقت او لا، السؤال هو كم من اصدقائنا سيصدقون ذلك؟ الحقت العار بابتي ولوثت سمعتي وستكون عور احافيت اهالي لندن. اود ان اعلم بما تنوي عمله حيال ذلك».

استعادت تامي الجرأة على الكلام، واندفعت تبدي الايضاح الذي تأجل مرتين:

«حقاً يا ابي، لا لوم على آدم، بل يقع الذنب علي. انا اخرجت الزورق ولم اناكد من كمية وقوده فكانت النتيجة ان توقفنا لوضع ساعات الى ان قطرتنا دورية الى الشاطئ في الصباح الباكر. وقد امضى آدم الليل على سطح الزورق وغمت انا تحت».

لم يبد على جوك اي لين وزار صارخاً:

«انا اصدقك، ولكن هل يصدق الناس ذلك؟»

وتدخل آدم بكلمات تفيض احتقاراً:

«وهل تبالي بتصرفات بعض الاغبياء؟»

«اني والله ابالي».

قالا جوك حانقاً.

في الجبال المعزولة تجد مناعة ضد الألسن الثائرة، أما نحن
فمنعاشهم ومياً. في الأشهر القليلة ستكون قد نسيت هذا الحادث،
بينما أكون و مي هدفاً للانتقادات اللاذعة والنظرات الحافكة
بالمعاني. ألحق العار بابتني. في الأيام الغابرة كان عمل كهذا يثير
العداء المستحكم.

أهريت تامي عن عدم تصديقها بقولها:
«كم هذا سخيف يا أبي».

استدار جوك نحوها وهو يرمخ غضباً وأمرها قائلاً:
«أذهبي إلى غرفتك. لي حديث مع هذا الشاب».

ألقت تامي نظرة على والدها. كانت قد رآته يصب غضبه على
الآخرين، ولكنها لم تكن مرة هدفاً له. شدة غضبه كانت خفية،
ولاحظت العروق تبرز في صدغيه وتوشك أن تنفجر. كان يتنفس
بصعوبة واحتقن وجهه بلون داكن مخيف.
توسلت إليه وقد اعترتها رهبة مفاجئة:

«يجب أن تهدأ يا أبي».

نبرتها الهادئة لم تزد إلا انفعالاً، وبغضب هائل لوح بذراعيه
بانحاء غرفتها مصراً على تنفيذها لأمره. وقفت مترددة ونظرت إلى آدم
الذي أوما برأسه فأذعنت وتوجهت متمهلة إلى غرفتها.

جلست في غرفتها لمدة ربع ساعة تصغي إلى صوت والدها
الغاضب وإلى أجوبة آدم الهادئة. كان يتكلم بنبرة معتدلة، مزيلاً
تدريجياً الحدة من نبرة والدها.

أما الآن وقد اتبح لها التفكير بنتائج تصرفها الأرعن شعرت
بتأنيب الضمير. لم تتوقع أن تسبب كل هذا العذاب لوالدها. منذ
طفولتها وهي موضوع محبة والدها، ولو كان والد سواء لكانت موضع
كراهيته. لم تكن المرة الأولى التي تخن فيها تامي إلى حكمة والدتها
ومؤاساتها. دللها جوك إلى درجة مشينة ضارباً بتحذيرات الأصدقاء
عرض الحائط، مدعياً أن تصرفات ابنته المعوجة سيصلحها الإدراك

السليم الذي ورثته عن والدتها وهي سيدة فاضلة من يوركشاير
اعتمد جوك عليها كلياً طوال العشرين عاماً من زواجها.

مولد تامي وضع خاتمة لزواج قام على مدى السنين على المحبة
والثقة. الطفلة التي طالما توسلها جاءت متأخرة جداً في حياتها،
وتسببت بتضحية والدتها بحياتها من أجلها.

أغرورقت عينا تامي بالدموع وهي تفكر بالمحبة الفائضة التي
لقيتها طوال حياتها. وتلطيفاً لعذابه من جراء خسارته، صب جوك
كل طاقته على تنمية أعماله وانهالت ثمار ذلك عليها وهي لا
تستحقها. كيف ردت إليه الجميل؟ بعمل طائش واحد خانت ثقته
وزعزعت إيمانه واسكت إلى الأبد مباهاته بأن تامي لم تسبب له لحظة
من الألم منذ ولادتها.

فرع على الباب وصوت أمر انتشلاها من افكارها القائمة:

«ارجوك أن تخرجي يا آنسة ماكسويل، يرغب والدك في التحدث
إليك».

طار قلبها استجابة لنداء آدم وامرعت إلى الباب فتفتحه، كان
يقف على العتبة بقماته المديدة وشفته المزمومتين ونظرت إلى حيث
يجلس والدها يرشف المربطات.

«هل أنت بخير يا أبي؟».

وجرت لتجشؤ عند قدميه وترى بعينيها الحائضتين الامتقاع الغريب
الذي يكتنف عيائه.

ابتسم جاهداً وكانت في صوته رنة يشوبها الأمل وهو يشير نحو آدم
قائلاً:

«شرح لي آدم الأمر يا عزيزتي ويجب أن اعتذر لكما على ما بدر
مني».

«وآدم شرح الأمر؟».

رددتها بحلر والتفتت إليه تستقرئ عيائه الرصين الهادي.

«ولا أفهم لماذا وجدتما صعوبة في اطلاعي على حقيقة

NLO

مشاعركم. . .

قال جوك متلعراً:

وقد يهز البعض بنظرية الحب من النظرة الأولى. أخبرتك مرات عديدة عن لقائي بوالدتك. حين رأيته أدركت أنها الفتاة الوحيدة التي أريدها زوجة لي.

ومد يده يربت بها على رأس تامي:

واجل، تلك الساعات الأولى من اكتشاف الأمر قد تتحكم بتفكير المرء وتطرد كل ما عداها من خواطر. اذكر لقاءنا الأول جيداً، كنا في حفلة وتطوّعت أن أحمل إليها بعض المثلجات وكانت تقف في إحدى زوايا القاعة وحيدة مرتبكة، يسيطر عليها الحياء. وعندما رجعت اكتشفت أن الحياء يلجم لساني، التفت عيوننا ووقفنا صامتين يسير أحدهما غور الآخر إلى أن ارتطم أحدهم بذراعي فانسكت المثلجات على مقدمة ثوبها.

ألم الذكرى عقد لسانه وبدأ لها أنه يشيخ أمام عينيها الحائيتين. ثم نفّس عنه تلك الذكريات الاليمية وبشيء من حيويته المعهودة خاطب آدم:

والوقت مناسب الآن لأعمل بتصحيحك. اشعر بالتعب، لذلك سأنام قليلاً وأتركك يا آدم لتتهاز الفرصة التي كنت تتحين. لا اشك في ما سيكون ردها.

نظرت تامي إلى آدم وهي تكاد لا تشعر بمغادرة والدها للغرفة. كان آدم يسير في الغرفة بخطوات رجل اعتاد السير مسافات طويلة على الأعشاب الخضراء والأريج يفوح من أزهار المروج الشاسعة المحيطة به. بدا في هذه الغرفة وكأنه في قفص أو كتغلب محاصره كلاب الصيد.

عندما توقف أمامها فجأة انكمشت على نفسها تحت نظرة الكراهية التي صوبها كسهم استقر في قلبها قاطعاً خيطاً دقيقاً من الأمل في استمالاته إليها مع مرور الزمن.

ولا بدّ من الزواج.

انطلقت هذه العبارة وكأنها تنسلخ عن حنجرتة قسراً.

هزتها الصدمة.

وأحقاً؟

همست محاولة كسب الوقت لامعان النظر في أحاسيسها المتضاربة بين الفرحة الكبرى التي طارت من بين يديها واليأس القاتل المتمثل بطلبه المشحون بالضغينة. أشياء كثيرة استرعت اهتمامها في الماضي، ولكن علمها أن والدها سيحقق رغبتها لدى أدق إشارة منها أفقدها متعة التملك، إذ لم يعد يستهويها شيء، ولم تكن لأمن الماسات أو أفخر الفراء أية قيمة أكثر من كونها نزوة عابرة. . . حتى الآن. أنها تحمّ إلى آدم حنين الأرض العطشى إلى الماء. حنين المزروعات إلى الشمس. حنين الجائع إلى كسرة الخبز. تحن إليه حنين الرضيع إلى أمه وحنين اليتيم إلى الحنان. كانت عيناها تعذانه بالوفاء مدى الحياة.

انقض صوت الأجرش على آمالها كالسوط مخلفاً وراءه اثره الذي لا يتبدل:

وتدركين ولا شك أنه السبيل الوحيد لراحة بال والدك، لا اظنك تبالين كثيراً بالتقاليد، ولا شك أن شهامتي الرجعية توفر لك تسليّة كبرى، ولكن الفضيحة سريعة الانتشار وتبلغ جبال كمبريا ومن واجبي أيضاً الحفاظ على سمعة عائلتي. منذ عصور طويلة واسم فوكس رديف للعدالة والشرف والمبادئ السامية، ولا أريد أن أكون أول المسيئين إلى هذا الاسم. فكّري بصالح سواك ولو لمرة واحدة في حياتك بدلاً من التفكير بنفسك. يجب أن توافق على هذا الزواج فانت تدينين لوالدك بذلك.

وأبدت شيئاً من المعارضة:

«ولكنك لا تحبني يا آدم».

فقاطعتها بدون رحمة:

NLO

«هذا صحيح، ليس ذلك فحسب، بل أيضاً شخصيتانا واخلقنا ومركزنا الاجتماعي وحتى وضعنا المالي تتعارض كلياً، لذلك لا يمكن القول ان احدها مناسب للآخر».

راحت يجادل بهناد:

«وحتى عندما يجتمع شخصان مناسبان ليس هنالك ما يضمن ان ومضة يريق مشعل نار الحب».

أزعجه اصرارها على ترديد النغمة التي تخرجها.

«حتى العلماء يحدون صعوبة في تحديد مواصفات الحب، وغالباً ما يختلط بمشاعر النزوات المحرمة او الشفقة او التمني الصادرة عن رغبة في الانتهاء الى انسان ما او امتلاكه. فكيف يمكن الجزم بمهابة الحب؟».

قالت والغصة في حلقها:

«ستدرك ذلك عندما تذوق طعم الحب، وترتعش لدى رؤية الحبيب، وتتأثر لدى سماع صوت معين، وعندما توقف حياتك كلها على شخص واحد».

تجاهل حديثها وبادرها بالقول:

«دعك من هذه السخافات. ثمة قاسم مشترك يجمع بيننا وهواننا واقعيان مع الآخر بعين الاعتبار آراءك المعسرة، لا تستائي اذا ذكرتك بان الزواج لم يعد في هذه الايام حكماً بالاستعباد. بعد عام او ربما قبل ذلك. نلصق لوالدك بأننا لسنا على وفاق وبذلك ينهي تدريجياً لفكرة الطلاق ولن يكون انفصالنا الفعلي صدمة له».

تفكيره السقيم أثار استعزازها. لا يمكن ان تخون حساسية مشاعرنا ابداً كان الدافع او السبب.

«شكراً لعرضك الزواج، هذه الفكرة لا تروقني».

قالت وهي تندفع مغادرة الغرفة.

وما ان بلغت الباب حتى شعرت بقبضة تمسك بكفها وتمزق بشرتها. ادارها آدم ثم تركها ووقف مكتوف اليدين يرمقها بنظرة

ثابتة.

«ستصبحين زوجتي طوعاً او قسراً، لك ان تختاري. اما اذا قررت مقاومتني فتذكرني اني لن اكون اول رجل من آل فوكس يأخذ امرأة من آل ماكسويل عنوة».

كان ذلك فوق احتمال تامي.

«لا اعلم كم امرأة من آل ماكسويل عرفت في حياتك، اني من النوع الصعب، والرجل الذي يمتلكني سيفعل ذلك وفقاً لشروطي ومشيتي لا لشروطه ومشيته».

لاحت ومضة حائرة في عينه:

«تشتهر نساء آل ماكسويل بحدتهن، ولكن التاريخ اثبت كونهن سريعات التأثر بالقبضة الفولاذية».

أثار فضولها فقالت:

«هل تتكلم بدافع من الخبرة؟».

«بل بدافع اسطورة تكررت مدى الحياة. كلانا ينحدر من عائلتين حدوديتين خاضتا ولمدى اجيال، اطول قتال واشده بين جماعات غزاة الحدود. كان ذلك في حوالى القرن الثالث عشر عندما كانت قبائل الحدود الانكليزية والسكوتلاندية تقتل باستمرار. وكان البلدان في تلك الأونة في حالة سلم بينها كانت الحدود تسودها اللصوصية والابتزاز والغزو والحرائق والخطف. كان ذلك اسلوباً مقبولاً في الحياة الاجتماعية. كانت الارض على الجانبين تنقسم الى مناطق حدودية، ثلاث سكوتلاندية وثلاث انكليزية ولم يكن يوسع المقيم على احد جانبي هذا الخط الوهمي ان يسير اعزل فيكون بمأمن. كانت البيوت تقفل من الداخل بالمزاليج وتقام الحراسة كل ليلة خوفاً من اللصوص المتسللين عبر الحدود لسرقة المواشي ومهاجمة اعدائهم وسي نسايتهم اذا سنحت لهم الفرصة».

شجعت تامي على الاسترسال في الحديث وهي حائرة بين الاعجاب وعدم التصديق.

NLO

«وتقول ان عائلتنا كانتا على الجانبين المتناقضين؟».

«بالتأكيد. كانت عائلة ماكسويل اقوى قبائل سكوتلندا الغربية. لصوص اوغاد يدنسون كل ما تطاله ايديهم، كانوا لطخة عار في تاريخ منطقة الحدود. وكانت عائلتي تنتمي الى القبائل الانكليزية الغربية، ويشتهر اسلافي في انحاء كميريا يسجلهم الحافل في خدمة التاج كجنود عاديين وكضباط حدود، واقر بأنه سرت شائعة ذات مرة مفادها انهم كانوا يستغلون مناصبهم للتستر على غزواتهم، ولكنني اؤكد ان الشائعة كان مصدرها جيرانهم آل ماكسويل».

فقلت بامتناع:

«ولا شك في ذلك، اذ يصعب التصور أن ينحط شخص مثلك الى ذلك المستوى».

آلها تقبله لكلامها على عواهنه، اما متعمداً او بدون وعي منه، متجاهلاً تهكمها. وبعبسية ظاهرة راحت تدرس السليل الغامض لقبيلة غير اعتيادية. فقط، متحفظ، يحقر المواطنين الذين لا يتحدرون من سلالة قوم عاشوا بقوة السيف وحافظوا على الحدود التي كانت مسرحاً للغزو والسرقة والقتال المرير، اطرافه الهزيلة ورثها عن رجال اشداء لهم قلوب الاسود، يستعملون سلاحهم بمهارة فائقة. هالة كبرياء تحيط برأسه المتعجرف وبأنفه المستقيم وبفمه الذي لا يعرف الابتسام، واهداب كثة تحيط بالعينين الحادتين الشبيهتين بعيني مقاتل مقدم. عدو عنيد يبحث عن خصمه، عينا رجل من آل فوكس تزنان قيمة فتاة من آل ماكسويل.

الزواج من رجل كهذا يعني حياة من النضال المرير. ارادتها ضد ارادته، متطلباتها ضد رفضه، روحها المتوحشة تنور على حقه المقدس في السيطرة. قد تنبعث حروب اللصوص مجدداً بعد اجيال. آل فوكس ضد آل ماكسويل. الجرح بالجرح. سلب الارادات يستمر حتى الموت بدون اخذ او عطاء. ومع ذلك تهال الغنائم على المنتصر.

ثمة شك راح يزعجها:

هل تملك الجراءة؟ هل تملك عزيمة وبأس اسلافها؟

عقلها الباطني يقارن بين ملامح وجهه الوسيم والالوان القائمة للأرض التي يجتازان.

منذ ساعة خلفاً وراءهما ما كانت تعتبره آخر معقل للمدنية وعدد الابنية يتضاءل تدريجياً لتحل التلال محلها. اخذت الطريق تتجه صعوداً والتلال التي بدت كتلاً رمادية في الأفق ما هي الا صخور صوانية شامخة تطل بعبوس وازدراء على الطريق الشبيهة بسيف يخترق عزلتها.

وتبين لها ان البقع الصغيرة التي كانت تتحرك أحياناً ما هي سوى خراف ترعى فوق هضاب شديدة الانحدار، تروها شلالات صغيرة، وتقسّمها مربعات من الجدران الحجرية المنخفضة تمتد من قاعدة الجبل حتى قمته. دفعها الفضول الى قطع جبل الصمت الذي لازمها طوال فترة الرحلة تقريباً فقالت:

ولماذا كان من الضروري إقامة جدران على طول الجبل وعرضه؟

وماذا؟

كان رده اشبه بالاستنكار لقطعها جبل افكاره. ولكنه عندما استوعب السؤال ابتسم، وفي تلك اللحظة تبددت الغيوم واكتست الجبال بثوب من غيوط الشمس الذهبية.

وميزة هذه الجبال هي تلك الجدران الحجرية التي لا مبرر لوجودها. غالباً ما يتساءل الاغراب عن فائدة تلك الجدران التي لا تحتوي شيئاً والمتعرجة في الأفق تحيط بالغابات. وللأسف، معلوماتنا عنها ضئيلة، ولكننا أصبحنا نعتقد انها نوع من الحدود. سياجات بين المزارع، بين رعية وقطاع، فواصل بين القصور وعمامة الشعب. ثبت انه منذ حوالي الالف عام أقام النساك أول هذه الجدران. كانوا مزارعين ماهرين وهم اول من صنع مجاري المياه وزرع الارض هنا.

قالت بدهشة ظاهرة:

٤- الحب بهجة مشتركة

كانت سيارة تامي تنهب الأرض نهباً يقودها آدم، بينما جلست هي بجانبه تغمرها سعادة فائقة والشمس تنسلل من النافذة لتستقر على الخاتم الذهبي الذي يزين أصبعها. خاتم براق كالأمل المشرق في قلبها. حتى الغيوم التي اخذت تتلبّد في الأفق عمزت عن الخاد جذوة تفاؤلها الذي يرفض الفكرة القائلة ان هناك أمنية تعصاها. تحققت اغل امانياتها اذ أصبحت زوجة آدم، منذ سبع ساعات أصبحت السيدة آدم فوكس، من فوكس هول، كمبريا! وانتفض كل عرق في جسدها وهي تتلوق فرحة العروس التي ينقلها عريسها الى دارها الجديدة.

ألقت عليه نظرة مليّة وهي تقاوم غثياناً تولّاها لبرهة، بينما كان

«هل تعني ان عمر هذه الجدران ألف عام؟»
فاجاب مؤكداً:

«عمر بعضها الف عام، والبعض الآخر اقيم منذ حوالى القرن،
وفي ايماننا هذه ومع ان صناعة الجدران لم تنقرض، لا تقوم جدران
جديدة على الجبال الشاهقة. وبالطبع، يقوم المزارعون بصيانة
الجدران القائمة ويبثون زرائب للخراف. بحسب الحاجة، الا ان
عدداً ضئيلاً منهم يفكر باقامة سياج حجري جديد على قمم
الجبال».

انفجرت اسارير تامي تحت دفء ابتسامته المشرقة. سلوكه هذا
شجعها على القول:

«اني جائعة، هل يمكننا التوقف في مكان ما لتناول الطعام؟»
عادت السماء وتلبدت بالغيوم فحجبت نور الشمس، قال
عابساً:

«ناخرت ما فيه الكفاية، ساعة ونكون في البيت ولؤكد انك
تستطيعين الصمود».

ابتلعت رده الجاف. منذ ثلاثة ايام وهو يردد هذه المعزوقة، مبدئاً
ضيقه لكل دقيقة يضطر لتمقيتها في لندن للقيام بترتيبات الزواج.
حفلة الزفاف التي تمت في مكتب مسجل العقود تحت اصرار آدم،
عمتها الغفوضي اذ تمت بطريقة سريعة خالية من الرومانسية. ولولا
والدها لما كان هنالك افطار العرس ولا صورة تحتفظ بها كأجل ذكرى
لأهم يوم في حياتها. كان جوك قد نشر خلسة، في افضل صحف
المدينة، نبأ زفاف ابنته بعبارات منمقة ليخلق انطباعاً بأن الزواج كان
متفقاً عليه، وبذلك وضع حداً للأقاويل وظهر ستيف هاريس بمظهر
المتجني.

وجدت ذاتها تعترض قائلة:

«ثلاثة ايام ليست هي العمر كله، الا يمكن الاستغناء عنك
لقضاء بضعة ايام بمثابة شهر العسل؟ الا مدير اعمال لديك؟».

لم يعد يعرها آدم التضاوة بل اطلق للسيارة العنان فاندفعت بسرعة
فائقة وقال:

«شهر العسل هو للمحبين ونحن لسنا منهم، ولا مدير اعمال
لدي، بل لي عمتان مستان تساعداني بقدر الامكان، وكما تقول
العمة فيني عين الكهولة بصيرة ويدها قصيرة».

سبق ان سمعته يتحدث عن عمته ولكن ليس باسهاب:

«كم تبلغ من العمر؟ قامت بتربيتك على ما اظن».

اجمأة رأسه اشعرتها بانها تتدخل في امور شخصية:

«انتقلنا للاقامة معنا فور وفاة والدتي بعد مولدي بعامين، وكنا لا
تزالان معنا عندما توفي والدي منذ خمس سنوات واصبح منزلي
مقرهما. ولكونها لا اقرباء لها سواي، فقد باعنا منزلها واتخذنا من
فوكس هول مقراً دائماً لها».
واضاف متشدداً:

«ياك ان تسيبي الى شعورهما بالاطمئنان اثناء اقامتك القصيرة
معنا».

فطمأنته بجماس:

«لا اتوي الاساءة الى العجوزين العزيزتين».

بدا وكأنه يخشع ثم تمنح وقال:

«والحديث عن السن محرم. مع انها تميلان للعيش في ذكريات
الماضي فانها لن تشكراك على قولك انها هرمتان».

انحرفا عن الطريق الرئيسية عند مفترق يحمل لافتة تقول
كارليس ويدلا من ان يكمل السير نحو البلدة الرئيسية في الاقليم
فقد سلكا مخرجاً عند مستديرة تؤدي الى منطقة زراعة ماوين بمزارع
منعزلة وقرى مرتبة. وبعد مسيرة ساعة بالسيارة اخذت الطريق تتجه
صعوداً الى ان اوقف آدم السيارة على قمة شاهقة ليتيح لتامي القاء
نظرة مليّة على المناظر الخلابة المنتشرة تحتها والمحيط بأبراج ومداهن
المدينة الواقعة الى اقصى يمينها، ومساحات شاسعة من الجبال

الكثيبة الى يسارهما وشاطئ سولواي امامهما مباشرة وخيط رفيع من البحر الفاصل بين الجارين الانكليزي والسكوتلاندي.

بحث في جيبه عن غليونه وقال:

«اقتربنا، عندما نجتاز القرية نصبح عند عتبة دارنا».

«القرية؟».

سألت وهي تسليخ بصرها عن خيط البحر الرفيع متسائلة ما اذا كان عميقاً وبارداً وغير قابل للعبور كالخليج القائم بينها وبين آدم. «كالدبك مسقط رأس جون بيل صياد الثعالب الشهير. سمعت الاغنية ولا شك».

راحت تردد الاغنية:

«بالطبع، اتعرفون جون بيل بمعطفه الزاهي...».

فقال مصححاً:

«معطفه الرمادي. كان يرتدي معطفاً رمادياً بأزرار نحاسية، ويشتهر بخطاه الرشيقه وعينييه الرماديتين الجذابتين القادرتين على النظر الى الابد».

«كعينيك تماماً».

قالتا بينهما وبين نفسها وتاهتا في أعماق عينييه الزرقاوين غير مدركة ان الحنين واضح على محياها وثرغها المرتعش وفي عينيها الصافيتين، تتوسل نظرة تشجيع واحدة منه. وتخلت عن تحفظها بالنسبة اليها، الحب بهجة مشتركة وهي سخية معطاءة، فدنت منه والقت برأسها على كتفه وقالت له بلطف:

«آدم، انقضى نصف نهار على زواجنا ولم تعانقني بعد».

شعرت بكتفه ينتفض بوحشية وأبعدها عنه الى اقصى ما يمكن. «أنسيت اننا تزوجنا لنسكت الألسنة الثائرة؟ لا ولن اشعر بميل نحوك، ولكنني سأتحملك علماً لشعوري بانى مدين لوالدك، وأشك في كونك ذات شخصية عميقة ومقدرة كافية لتحمل تعب الحياة هنا ولو لهذه الفترة القصيرة، وانا مقتنع بانك ستهرولين عائدة الى لندن

بأسرع ما يمكن وهذا ما اتمناه، واثناء اقامتك هنا تذكرني اني امقت الألاعيب النسائية. نشأ الرجال هنا ليكونوا صيادين، تحرشات المرأة تثير ريبهم ويعتبرونها مرفوضة، وهذا الشعور يساورهم لدى رؤية ثعلبة تستدرج كلاب الصيد الى جحرها».

مشهد الخراف تجوب الحقول الممتدة على ضفة النهر لم يخفف عن تامي ما عانته من ألم الصد طوال ما تبقى من الرحلة. كان آدم ينطلق بالسيارة بأقصى سرعة عبر حقول مهجورة الا من قطعان ترعى. شمس خجولة حاولت الاشرار على قمة متجهمه فاحمدتها غمامة تلبدت حول تلك القمة المكسوة بالثلوج. بعد مسيرة ساعة بالسيارة ابتدأت تامي تزداد فهماً. لا يمكن ان تكون في جزيرتهم المزدهجة بالسكان اميال شاسعة من الارض العراء الخالية من السكان الادميين يخيم عليها سكون يتردد فيه الصدى كرنين الجرس.

لطالما تبرمت في لندن من ازدحام الملايين الذي يجعل الجو خانقاً، وكانت كلما شعرت بالضيق تلجأ الى الزورق وتقوم بنزهة بحرية تروح بها عن نفسها. وهنا يتوفر لها الوحدة والسكون اللذان طالما حنت اليهما. فلماذا يتولاها الخوف؟ لماذا تشعر بانها تجردت من بريق الحياة العصرية الزائف وتنحني باستسلام امام كيان عظيم غير منظور؟

«وصلنا».

رنة الارتياح في صوت آدم انتشلتها من تيه افكارها وهزت كيانها. كانت السيارة تجتاز طريقاً وعرة تؤدي الى بيت ضخم يقوم على جانبيه برجان اصفيا عليه شكل الحصون القديمة، يكسو الطحلب الاخضر سطحه القرميدي، وبابه الخشبي الضخم مشرع للريح الشمالية الباردة.

ارتعدت تامي وهي تغادر السيارة فأسرعت والتقطت معطفها الصوفي السميك الملقى على المقعد الخلفي. تنشق آدم الهواء بنهم ظاهر وقال:

«مستجدين ان معطفين لا يكفيان لمكافحة البرد في الشمال. لا تدعي الشمس تخذلك. سوف يتساقط الثلج الليلة على الجبال الشاهقة».

وصدقته، الريح الشمالية كتعت لها انقامها. وفيما كانت تسير الى جانبها مترنحة على حذاء عالي الكعبين، وتتسائل ما اذا كان عليها ان تعرض عليه المساعدة في نقل الامتعة، اذ بصرخة ابتهاج جعلتها تلتفت بسرعة بحيث كادت تفقد توازنها.

«آدم! ولدي العزيز».

«اسرعي يا فيني، وصل آدم».

«عمتي هونورا».

ترك آدم الحقائق وطوق بذراعيه امرأة نحيلة كانت قد جرت نحوه.

لم يتغيب سوى ثلاثة ايام! اذهل تامي هذا الترحيب الحار، وبينما هي واقفة تشاهد ذلك، مرت بها امرأة طويلة بارزة العظام مسرعة لكي تفصل الامراة الضئيلة عن آدم الذي لا تزال تطوق عنقه بذراعيها. وكان من الواضح انها تنوي المطالبة بحصتها من الاهتمام.

«قلت انك ستتغيب يوماً واحداً فقط».

قالت الطويلة بعد ان طبعته قبلة حارة على وجته.

«لا يحق لمن هو مسؤول عن الفتي نعجة وثلاث مئة كبش والعديد من الماشية ان يتغيب ثلاثة ايام كاملة».

شكل آدم الخجول فتن تامي. كان يتملعل مرتبكاً كتلميذ اهل واجباته:

«انا آسف يا عمتي فيني، اخترتني مصيبة لم استطع تحاشيها».

تولى تامي حياء ساخط، اطلق الناس عليها شتى النعوت في حياتها الا نعت «مصيبة» فاخذت تضرب الارض بحذائها بعصبية. لم يولها احد اي اهتمام وكأنها غير مرئية فأطلقت سعالاً حاداً جعل

جميع العميون تتجه نحوها.

قال آدم بصوت اشبه بالصراخ:

«عمتي فيني، عمتي هونورا، هذه تامي... زوجتي».

«زوجتك!».

انطلق صوتان في آن واحد، احدهما مرتفع متفعل والاخر اجش

مستاء، ويدت عليهما دهشة فائقة.

قدمهما اليها بحسب درجة اهمية كل منهما:

«تامي، هذه عمتي لافيتا وندعوها فيني».

رمقتها المعجوز بنظرة ملية.

«وعمتي هونوريا وندعوها هونورا».

اشرقت اسارير المعجوز الثانية.

عسل وغل! وارتسمت على شفتي تامي ابتسامة ساخرة ثم راحت

توبخ نفسها لتسرعها في تكوين الرأي. وازدادت ابتسامتها اتساعاً

عندما تقدمت العمة هونورا عارضة وجنتها:

«يسرني يا عزيزتي ان يكون آدم قد وجد اخيراً عروساً شابة

جميلة».

زججرت الريح عندما حان دور العمة فيني في الكلام. اخذت

عينها الناقدتان تجولان في قوام تامي وتلكأتا عند قدميها، وقد بدا

عليها الدهول من الانوثة المناقضة للحذاء العالي الكعبين:

«احقاً تستطيعين المشي بهذا الحذاء المضحك؟».

قالتها وقد تجعدت شفيتها العليا.

غاص قلب تامي، يبدو ان هذه المخلوقة النحيلة، الحادة

التقاطيع، الجارحة النظرات، قررت ألا تحبها، بخلاف اختها

الموردة الوجنتين.

شمخت تامي بانفها وقالت:

«بالطبع».

ومشت الى الامام على صخرة حادة الاطراف فتعثرت ولو لم تمتد

NLO

يد آدم اليها بسرعة لسقطت ارضاً.

اطلقت العمة فيني آهة اوقدت شعلة الحجل في وجنتي تامي.
واردفت العمة هونور قائلة:

«ارجو الا يكون قد اصابك مكروه. ادخلي الى البيت واريمي كاحلك، عظام كاحليك رقيقة بحيث لا تحمل طرقاتنا الوعرة». عندما اصبحت تامي في القاعة الكبرى شعرت وكأنها عادت قرناً الى الوراء. متائر مزرکشة طمس الزمان الوانها تتدلّى على جدران حجرية رمادية اللون. رايات بالية ترفرف في الهواء المتدفق من المدخل المفتوح، والقماش الحريري المتهرى جعلها تحبس انفاسها خشية ان يتهاوى ويتفتت. ابواق صيد نحاسية طويلة تتدلّى بانحراف بين لوحين زيتيين داكني الالوان، دنت منها لثرى فيها فرساناً على صهوات جيادهم وفي ايديهم اكواب قدمتها لهم خادعات بشوشات، وكلاب للصيد نفذ صبرها فراحت تنبح. درج عليه ثروة من المنحوتات الجميلة تمتد الى ارتفاع مجهول من ارض كست بعض جوانبها اصناف متنوعة من جلود الحيوانات.

اما غرفة الجلوس التي اقتادوها اليها فتختلف كلياً عن القاعة، اختلاف شخصيتي الاثنين. الطبقة اللماعة على المفروشات، الطاولات القديمة، والمقاعد الفاخرة المصطفة الى جدار زاهي اللون استغرقت ساعات طويلة من العناية، الستائر الزاهية تتماوج على النوافذ المظلة على المناظر البديعة للجبال، وموقد ضخم فيه نار مستعرة ينتشر منها الدخان واللهب وتلتهم الحطب الزكي الرائحة. سجادة تحمل جميع الوان الحريف زادت من دفء الغرفة ووفرت الراحة والاطمئنان لكلب صغير يربض امام المدفأة المكشوفة. ألقت العمة فيني نظرة حادة عليه وصرخت:

«هونور، كم مرة يجب ان أمنعك من ادخال الكلاب الى البيت؟»

«البرد شديد في الخارج وهو لا يزال جرواً».

«اخرجيه».

امرتها العمة فيني وكنت ذراعيها وكأنها تستعد لحوص معركة. ثارت ثائرة تامي. يبدو انه ساءها وصول آدم وبصحبته عروس مجهولة فقررت صب جام غضبها على الكلب المسكين.
«أليس جيبلاً؟»

وجئت الى جانب الكلب النائم ذي الشعر القضي الحريري، الطويل الاذنين والقوائم وغير مكتنز الجلد:
«ها للصغير الجميل، ابن معي هنا». فردت العمة فيني بحزم:
«لن يبقى».

كاد ارتطام الكلام ان يكون مسموعاً. ثم انطلق صوت العمة هونور بوجل:

«فيني، هذا منزل آدم، وتامي هي زوجته».

وردت فيني بانفعال:

«انها شديدة المراس».

وقال آدم بتردد:

«عنيده».

أومأت تامي برأسها وقالت:

«نحن، معشر آل ماكسويل ثوار مشهورون».

كان لقولها وقع الصاعقة على سامعيتها، واستدارت أربع عيون نحو آدم.

«هل قالت ماكسويل؟»

كانت العمة فيني في حالة هياج جامح، بينما لزمّت العمة هونور الصمت.

«جئت بعروس من آل ماكسويل الى هذا البيت؟»

كان ارتباك آدم تأكيداً للواقع، اطلقت فيني شهقة دعر واستدارت على عقبها وغادرت الغرفة تلحق بها اختها التي تضاهيها تعاسة.

استدار آدم اليها والشرر يتطاير من عينيه:
«أكان من الضروري ان تفجري النبا على هذا النحو؟ كنت اتري
ابلاغها ذلك بلطف وفي الوقت المناسب».

نهضت تامي وهي لا تزال تحتضن الكلب. منذ قليل قال آدم انها
«مصبية» والأن، ينوي كتم اسمها، ورمته بنظرة تقيض تحدياً
وازهواً.

«ابهذا القدر تخشى رأيي عميتك؟»
انتفضت اوداجه غضباً غير انه لم يكن في رده اثر للانعزال:
«اني لا احشاهما بل اسيرهما لاني معجب بها. العمة فيني ليست
شرسة كما تحاول ان تبدو».

وردت متهمكة:
«تعاملك وكأنك صبي شرير».
هز كتفيه واثار غيظها ابتسامة بشوشة:
«بالنسبة اليها سأبقى صبياً شريراً، واقول لك الحق، اعيش
بخوف دائم من ان تضعني احدهما على ركبتيها وتضربني على
مؤخري».
فاجأها بهذا القول همساً.

نظرت الى طول الفارغ وتقاطيع وجهه القوية المنحدرة من اجيال
المناضلين، وفمه الذي يدل على قوة العزيمة، وذقنه العنيد
والعضلات التي تبرز لدى كل حركة منه، وخطوته الثابتة المختالة،
ولاحت على شفثيها ابتسامة عندما فكرت بهذه الكذبة. للرجل
الذي اقترنت به اغوار لن تستطيع سيرها. هذه الفكاهة غير المتوقعة
كانت متعة اضافية. قليل من الرجال الذين عرفتهم استطاع
اضحاكها. كانوا يسعون الى متعة شخصية وبيالغون في ابراز
الصورة التي يبنون الظهور عليها وهي الاغراق في الضحك. اما في
آدم فقد وجدت بشراً غامضة من الطرف، لا يشرك فيه الا القلة من
الناس. وقالت مقهقبة:

«اتك منير للدهشة، تبدو فظاً بيننا انت لين العريكة».
وضعت الكلب ارضاً وانجهت نحوه وساءها التوتر الذي ظهر
عليه جلياً لدى اقترابها منه. وقف بدون حراك وفي حالة تأهب عندما
مدت يديا تداعب شفتي سترته:

«انت شهيم يا آدم وتولي حمايتك لمن تحب».
وشعرت بغصة في حلقها:
«ارجو ان احظى بالشيء ذاته يوماً».

ادركت انه لا يملك المناعة النامة وقد فتنتها عضلة انتفضت في
زاوية فمه. ولفترة ساد صمت مشحون بالترويق وخيم التوتر مؤلماً
خافتاً.

لاح بصيص امل في قلبها. كان يكرهها ويحتقرها ولكنه لأول مرة
يشعر بها كمرأة، كزوجة جميلة جذابة.

اعتبرت ذلك تشجيعاً لها فطوقت عنقه بلذراعيها، ولما لم يتجاوب
معها ازدادت اقتراباً في محاولة لمطالبتها بحقوقها المشروعة كزوجة.
وهمت متمسكة:

«ارجوك يا آدم، ارجوك».
وتأهت في بحر عينيه الزرقاوين.
انطلقت شتيمة فظيعة من بين شفثيه.

«كفي عن ذلك!»
وسدد اليها دفعة ابعدها مترنحة:

«اتك تجمعين من هذا وضعاً لا يطاق».
اطلقت زفرة حارة وبذلت جهداً كبيراً لتحبس دموعها.

«لماذا يا آدم، لماذا؟ لست لا مبالياً كما تحاول ايامي. بمحاولة منك
تحقق السعادة ونجعل من زواجنا قمة في النجاح».

لم يكن غضبه منصباً عليها بقدر ما هو منصب على نفسه:
«أقر بكونك فاتنة وخاصة بلعبة الحب التي تمارسين، وانا اشبه
بصبياد يجتاز ينبوعاً بارداً في قيظ النهار، وقد اغوص فيه ولكنني

٥- لص فظ من الشمال

عندما أصبحت تامي بمفردها في قاعة الجلوس كبت دموع الغضب. الزجر والازدراء كانا جديدين عليها. عندما كانت مراةقة، اكتشفت مدى سلطانها على الرجال، فاستغلتها، وكانوا يخضعون بالعشرات لتأثير فتتها التي تلوح بها يمناً ويساراً وكأنها عصا سحرية، فينصاعون اليها ومع ذلك بقي قلبها بكرة لم يعرف رجلاً. تساءلت وهي تطلق بصرها عبر النافذة الى الصحور الشاهقة: «ما الذي أوقعني في حب لص فظ من الشمال؟». سعال اعتذار سبق دخول هونور الى الغرفة: «أعددت لك غرفة يا عزيزتي، تفضلي بمرافقتي فارشدك اليها». «هذا لطف منك يا عمي هونور. ارجو الا يضيرك ان اعتبرك

ولحسن الحظ املك من الكرامة ما يكفي مشاعري. لا مكان في حياتي الا لامرأة واحدة ولها الافضلية لدي، اما معك فأخشى ان اكون طريدتك الجديدة في نهاية صف طويل من الرجال.

عمتي».

«ولا يضيروني أبداً».

ولاح السرور على بحيا العجوز وقالت متلعممة:

«ولا تعتقدي أننا نضم شيئاً ضدك شخصياً. كان مجرد سماع

اسم ماكسويل في هذا البيت صدمة لنا».

وحذقت تامي بها:

«وما الذي يمنع ذكر هذا الاسم؟».

فأجابت العممة هونور:

«إنها قصة طويلة لا أظنك تودين سماعها، لا اعتقد أن ثمة ما

يربطك بتلك العائلة».

«ينحدر والدي من عائلة ماكسويل، من أباتنديل».

فالتها تامي بلطف:

ارتعشت شفة العممة هونور السفلى وأجابت:

«يا لله، أنت إذن من سلالة جوك الأسود».

أصبحت تامي باللذول وسارت بالعجوز المرتعدة إلى الأريكة وجلست بجانبها:

«هلا أخبرتي بما فعل جوك الأسود؟».

نظرت العممة هونور حولها بحذر وكأنها تتوقع ظهور اختها، وهزت برأسها ولكنها اضطرت للاستجابة لنظرات تامي المتوسلة:

«بالواقع، لم يكن جوك الأسود بالذات، بل هي ابنته هيغ».

«أحقاً؟».

واستحثتها على الاسترسال بالحديث.

«أرجوك أن تكلمي، لا يمكنك التوقف الآن».

أصلحت العممة هونور جلستها وقالت:

«كان ذلك منذ عدة قرون، وقد فقدت القصة شيئاً من رونقها لكثرة ما رددتها الألسن. يقولون أن ابنة جوك الأسود أعجبت بشاب

يدعى جيمس فوكس وأغرمت به وبذلت المستحيل لتحظى به زوجاً

لها. كان حباً من النظرة الأولى، لأنه حينذاك لم يكن تعارفهما في مناسبة اجتماعية ممكناً إذ كان ثمة عداوة مستحكم بين العائلتين،

وكانتا تتداولان في غزو أحدهما للآخرى».

وسألتهما فجأة:

«هل سمعت بغزاة الحدود؟».

فأجابت تامي:

«أعطاني آدم فكرة شاملة عنهم».

«وكانت تلك حقبة فروسية في تاريخنا».

وتنهدت العممة هونور بغبطة:

«بمجرد التفكير بها يجعل الدم يتدفق بسرعة في شراييني. غالباً ما

أغمض عيني وأخيل أني أسمع رنين المهاميز وأكاد أرى المقاتلين

يحملون الغنائم إلى الديار. كان الغازي يقاتل بحماس ويحرق

بحماس ويعشق كذلك بحماس، كان صديقاً صدوقاً وعدواً لدوداً.

لا ينسى الأساءة ولا يدير ظهره لمحتاج. كانت القبيلة بأسرها تشعر

بالعار إذا خان أحد أفرادها ثقة صديق أو عدو. قد يعتبر البعض هذه

الحقبة من الشهامة المتهورة لأعمال جريئة خاطئة التوجيه لمدر أرواح

الشبان، ومع ذلك ما من ولد لسكان الحدود ألا ويفخر بكونه من

سلالة أحد الغزاة في الأيام الغابرة. بالنسبة إلى الغزاة السكوتلانديين

والانكليز من حيث يظهر خط شيفويوت الأزرق ومن هنا نشأ النزاع

القبلي وغزوات السلب والنهب».

«إذن فالانكليز كانوا يمارسون الغزو أيضاً؟».

سألت تامي وهي ترفع حاجبها بدهشة.

«قال آدم أن السكوتلانديين فقط كانوا يقومون بغزو الانكليز

الممثلين للقانون».

هزت العممة هونور برأسها وابتسمت:

«وهذا غير صحيح، سلفنا جيمس فوكس رأى الفتاة التي حدثتك

عنها لأول مرة أثناء إحدى غزوات آل فوكس لأراضي آل ماكسويل».

NLO

قبضوا على جيمس متلبساً بجريمة سرقة مواشي آل ماكسويل، فحكم عليه جوك الأسود بالشنق على شجرة الأعدام التي لم يكن بيت من البيوت المرموقة يخلو منها. ولكن ميغ ابنة جوك توسلت والدها لأن يعفو عن جيمس إذ ادعت أنه قبل ساعات أخذها عنوة. اعترض الغازي الجريء على الادعاء دفاعاً عن براءته ولكن جوك الأسود رفض الأصغاء إليه وخيَّره بين الأعدام والاقتران بابتنته، واعتبر جيمس الخيار الثاني أسهل الشرائع ووافق على الاقتران بميغ ماكسويل باسم تراز كبير وفي ظل المشتقة، مع أن القانون الإنكليزي كان يعتبر الزواج من سكوتلاندي أو اسكوتلاندية خيانة وطنية. وبنت العمة هونور على رغبة تامي وقالت:

«ربما تدركين الآن سبب عدم ثقتنا بقبيلة ماكسويل، ولكن ليس ما يدعوك للقلق، أؤكد أنك لا تتحدرين إلى هذا الدرك للاقتران بأدم».

وقعت تامي يداً باردة إلى وجنتيها اللتين نداهما الحجل، وتساءلت عما تكون ردة فعل العجوز إذا علمت أن مزاحاً مارسه مع آدم كرر قصة سحق والد من آل ماكسويل على رجل من آل فوكس. وبالطبع لم تكن هناك مشقة يتهرب منها آدم، وتعلمت يلقى، لا شك أنه فكر بالتأثير السيء الذي يولده انسحاب والدها من الصفقة على المزارعين الذين يمثلهم.

أما الزواج أو افلاسه وافلاس اصدقائه. هذان هما الخياران اللذان كانا أمام آدم، ومثل سلفه اختار أسهل الشرائع. وسألت تامي:

«ماذا جرى لجيمس وميغ؟».

بدا القلق على عيا العمة هونور لدى رؤية الغم المسيطر على تامي وقالت:

«أنك رقيقة القلب بالرغم من طريقة حياتك العصرية. لو كنت اعلم أن الأسطورة سوف تسبب لك الغم لما سردتها عليك. كل ما

عرفه الناس عن جيمس وميغ هو أنها أنجبا ثلاث بنات وسبعة أبناء».

وراحت تضحك وبعد لحظات من الدهول شاركتها تامي الضحك، ضببت نفسها في البداية ثم تخلت عن تحفظها عندما أدركت قصدها.

قالت وهما تضحكان:

«آه يا عمي هونور، ألا يكون من المضحك أن يعيد التاريخ نفسه؟».

صوت فظ قطع عليها مرحها:

«وحل آدم امتعتك إلى فوق، وأنتك بلا شك، تريدان أن ترتبي حاجياتك».

هبطت العمة هونور على قدميها:

«وكنا قادمتين يا فيني أنا التي أخبرت تامي بثرثوقي».

«أصدقك».

قالت اختها مزيجرة وحدثت بتامي وكأنها تتوقع أن ترى رأساً آخر يبت لها.

ساءها خنوع العمة هونور فقالت بشموخ:

«لا يزال في الوقت متسع، لديكم خادمة ولا شك بإمكانها أن ترتب حاجياتي».

انتصبت قائمة العمة فيني قليلاً وقالت:

«ولا خادمة لدينا عليك أن تخدمني نفسك ما دمت هنا».

هزت تامي كتفيها:

«لا بأس، سييري إمامي».

ولكن العمة هونور هي التي رافقتها وقالت لها بلطف:

«اعتقدنا في البداية أنك سوف تشاطين آدم غرفته، ولكنه أصر على حاجتك إلى غرفة خاصة بك تحتوي على خزائن فسيحة، ولذا وضعنا امتعتك في الغرفة الملاصقة لغرفته ومع ذلك أشك بتوفر

المساحة الكافية لامتعتك الكثيرة.

تولت تامي الدهشة. تركت ثلاثة أرباع حاجياتها في الشقة بعد ان شدد آدم عليها بحمل الضروري منها فقط.

كانت في غرفة نومها نافذة تطل على سفح الجبل الذي يغمره لون ذهبي تحت اشعة شمس الاصيل. سرير بأربعة اعمدة تكدّست عليه اغطية اثار شكهيا بان الموقد الذي تم اشعاله بسرعة لن يكفي لابعاد الرياح، التي ستهب عن الجبال التي تكسوها الثلوج فتخترق شقوق الجدران القديمة. الألواح الخشبية التي تكسو الجدران والستائر المخملية السمكة اصفّت جواً من الاطمئنان، وكذلك بدت الخزانة كافية لاستيعاب حاجياتها.

وضعت العمة هونور المزيد من الفحم في الموقد وقالت بلطف: «نصف ساعة ويصبح الفحم جبراً وعندها تشعرين بالدفء». النار في غرفة النوم رفاية ولا نوقدها الا اذا كان في الغرفة مريض». «ما كان يجدر بك ان تتجشمي المشقة لاجلي».

قالت تامي معترضة وقد هالها العمل الاضائي الذي حمله الكاهلان اللذان ينوءان بالاعياء: «انا فتية وصحتي جيدة. اذ كنت واختك قادرتين على العيش بدون نار فكذلك استطيع انا».

«آدم اصر على ذلك يا عزيزتي».

رنة صوت هونور البسيطة اوحى بعدم جدوى الجدل: «سأتركك لتستبدلي ملابسك. نصف ساعة ويكون العشاء جاهزاً. ستكونين وآدم مستعدين له، ولا شك».

كان الحمام في الرواق، ولدى دخولها اليه، انبأتها رائحة صابون زيت الفجم بان آدم سبقها في استعمال الحمام الاثري الذي بدت عليه بقع سوداء من كثرة تنظيفه، حنفياته قديمة تتدفق منها مياه فاترة مبعثرة، وهنا تذكرت حمامها الفخم. قامت بغسله سريعة وخرجت من الحوض وتناولت منشفة لفت بها اطرافها المرتعشة، وبعد فرك

سريع لجسدها اندفعت الى غرفة نومها وارقدت اسمك ملابسها وفوقها ثوب صوفي طويل الكتّين ياقوتي اللون، تبرجت قليلا واطلقت مشطاً سريعاً في شعرها ووضعت قرطلين من الياقوت في اذنيها.

كان آدم ينتظر في قاعة الجلوس:

«اراك استبدلت ملابسك للعشاء، كنت انوي تنبيهك ولكنني نسيت. اني اعتبر ذلك هدراً للوقت، ولكن العمتين تصران على الرسميات بعد الساعة الثامنة مع انه لا يزورنا احد، انها تتمسكان بالتقاليد القديمة».

«هذا يروق لي».

قالت تامي مبتسمة واخذت كوب المرطبات الذي قدمه لها.

«لا تتزعزع علامات الحدود التي وضعها الآباء».

عقد حاجبيه لدى سماعه هذا القول

«اني اعتبر ذلك اذناً للأموات بالتحكم بالأحياء».

هز كتفيه وقد اذهله منظر الجمال يلتصق به كضلع يضاف الى صلوه:

«العمتان جاهزتان لتقديم العشاء، والافضل ألا تتأخر عليهما». ارتفعت معنويات تامي عندما سارت امامه الى قاعة الطعام حيث كانت العمتان تذرعان الارض جيئة وذهاباً.

اطلقت للعمتين ابتسامة خلاية عندما جلست على احد المقاعد وتقبلت صحناً من السمك المكسو بصلصة الخردل.

«سيكون طعامك هنا بسيطاً ولذيذاً».

قالت العمة فيني بلهجة الاهتمام تقريباً.

«عندما تتذوقين لحم البقر، سمك سولواي ولحم خروف هردويك الشهى مستحقين المأكّل الوهمية. بالمناسبة يا آدم، كيف جرت اعمالك في لندن؟ هل تمكنت من عقد صفقة افضل

للمزارعين؟»

قالت بطريفة مفاجئة جعلت يده تتوقف بالطعام قرب شفثيه.
بانتباه شديد اخفض آدم يده التي تحمل الطعام وأجاب:
«اجل، وذلك بفضل والد تامي. عرض شراء كل ما لدينا بسعر
افضل من الذي عرض علينا مؤخراً في المزاد».
«ما الذي دفعه الى ذلك؟»

طرحت العمة فيني السؤال الذي طلما تردد في خاطره.
اجاب وهو شارذ اللب:

«لست ادري، شرحت له كيف اتي وزملائي نواجه خطر
الافلاس بسبب تدني اسعار اصوافنا».
وقال مخاطباً تامي:

«هناك هبوط في سوق الصوف لأن الألياف الاصطناعية التي هي
ارخص ثمناً وأكثر متانة تسيطر على السوق، وبنتيجة ذلك فإن
الاسعار المعروضة علينا ثمناً لأصوافنا هي ادنى بكثير من اكلاف
طعام حيواناتنا».
قالت العمة فيني مقاطعة:

«هذا الرجل...»

«جوك ماكسويل هو والد تامي زوجتي».

زجرها آدم ببرود ظهر الاستعزاز على عيائها لاضطرابها الى التفوه
بالاسم.

«أليس جوك ماكسويل رجل اعمال؟ لماذا وافق على دفع ضعف
ثمن ما يلزمه؟»

اجاب آدم متلعثماً:

«ربما عطفاً منه على مزارعي الجبال، وقد يكون سعي وراء العدل
اصاب منه وتراً حساساً».

«هراء».

نهضت العمة فيني تجمع الصحون الفارغة.

«لم يولد السكوتلاندي الذي يفضل العدل على المال. والماكسويل
الطوف نادر ندرة الثلج في الصحراء. ولكن ليس فيهم احق
واحد. آدم، احترس من المساعدة التي يقدمها ماكسويل، سوف
تكشف ان وراء مساعدته دافعاً يثير الشهية».

الاهانة خنقت تامي فدفعت بصحن الطعام الذي كانت العمة
هونور وضعت امامها وصرخت بغضب نحو العمة فيني:

«كيف تجرؤين على هذا القول؟ والذي هو اكرم الناس قاطبة وهو
على استعداد دائم لم يد المساعدة».

«ربما يساعد ذويه وابناء جلدته ولكنه لا يساعد انكليزياً وبخاصة
كان من آل فوكس».

شعرت تامي بانها تتخبط في مستنقع من العداء القديم
والانتراعات العشائرية وكانت تظنها انقضت منذ اجيال، ووجدت
صعوبة في كبح جماح غضبها وحاولت الكلام بتعقل:

«لم يعد السكوتلانديون والانكليز في حالة حرب. الغيرة العمياء
والاقتال العائلي والشرائع العشائرية جميعها اندثرت منذ سنوات
عديدة. عندما اصبحت الحدود جسوراً تقوم على روابط القرى التي
نشأت عن التزاوج فولدت ثقة متبادلة في المعاملات التجارية كالتي
يتوي آدم ووالدي اجراءها، وقد شاع التزاوج بحيث اتي اشك
بوجود سكوتلاندي حدودي واحد ليست له روابط بعائلة انكليزية.
وليس في هذه المنطقة الريفية والجبال النائية والوديان المرحشة ما يشير
الى ان هذه الارض كانت يوماً ساحة حرب دامية. السطو والسطو
انقراضاً منذ اجيال ويصعب التصور ان هذه الارض كانت للاشرار
وتفصل بين الاشراف الانكليز الحدوديين والمخارجين على القانون
السكوتلانديين».

ادعشها ان تكون العمة هونور هي التي ناقضتها بصوت حالم
بشمس والنظرة التائهة التي في عينيها:

«والامر ليس كذلك يا عزيزتي! ارواح الاسلاف لا تزال تحيط بنا».

٦- لقاء ينتهي بعاصفة

بعد منتصف الليل بقليل استيقظت تامي ترنحفت برداً، وكانت النار في الموقد قد خبت، وعندما اطلت برأسها من تحت الأغطية كان جو الغرفة أشبه بالجليد، ورأت نور القمر ينساب من خلال الستائر المسدلة، ولاحت لها في الخارج كتل الصخور الضخمة البارزة بأشكالها غير المنتظمة.

لقت جسدها المرتعد بالأغطية الثقيلة وقد حنت الى لحافها الدافئ خفيف الوزن وإلى حرارة شقتها في لندن. أحسّت بأنها تعيسة، كسيرة الفؤاد ولم يسبق لها ان شعرت بمثل هذا اليأس في حياتها. بعد العشاء، استأذنت آدم للذهاب الى اجتماع للمزارعين وأوت العمتان الى الفراش باكراً. تركوها ولا رفيق لها سوى جهاز للراديو

صرخات الغزاة تحملها الريح لتتحول الى همس في مناقير الطيور وإلى عويل بين اغصان الاشجار التي تدلي برؤوسها الى المياه الراكدة. وليلاء، عندما يكون القمر بديراً وتكون الرياح شديدة، بحيث تدفع بالغيوم القائمة عبر قمم الصخور الشاهقة، تضطرب الحيوانات، وبدون أي سبب ظاهر تنبح الكلاب وتهرب الخراف قطعاناً عبر الجبال، ويقطع الثعلب عن التجول، ويسرع عائداً الى جحره، كل ذلك بسبب اصوات الاشباح التي لا يسمعا سواها وقلة ضئيلة من الناس. صليل السيوف، صرخة رجل ينقض على عدوه، الحشرة الاخيرة لعدو يخترق سيف جسده.

ارتنحفت تامي متأثرة بشدة معتقدات العجوز. وعندما التفت عيناها عيني آدم قرأت فيها تحديراً من التهكم، وامراً بان تحذو حذوه فتحمّل عن طيب خاطر. كفت عن الجدال والحزن يجيم عليها. هزمتها مقاومة عنيفة من عقل لا يمكن ان تصل الكلمات اليه.

ومكتبة حافلة بكتب قالت العمة فيني انها تتحدث عن تاريخ الحدود وهي كفيفة بتحسين معارفها.

ألفت نظرة عابرة على عناوين الكتب ولما لم تجد ميلاً الى المطالعة استقرت في مقعد مريح تنتظر عودة آدم، ولكن عند الساعة الحادية عشرة أخذ البرد يزداد تدريجياً في الغرفة وبما ان حطب الموقد أصبح رماداً اضطرت للجوء الى فراشها.

تسبجت عندما سمعت صرير الألواح الخشبية التي تكسو الارض خارج غرفتها، وأصغت الى وقع الخطى يجتاز البهو ثم يتوقف عند باب الغرفة المجاورة، فاسترخت على وسائدتها وشعرت بالاطمئنان لأن آدم عاد الى البيت.

راودتها فكرة القرع على الباب الفاصل بين الغرفتين ولكنها قاومتها. ولماذا لا تفعل ذلك؟ ان آدم هو زوجها وليس من حقه ان يقفل الباب الفاصل بين غرفتهما في أول ليلة من شهر العسل. ويحركه لا شعورية غادرت فراشها واندفعت نحو الباب وعندما حاولت فتحه وجدته مقفلاً.

راجحت تدق الباب:

«آدم، دعني ادخل».

توقفت الحركة في الغرفة المجاورة فجأة وسمعت وقع خطى تقترب:

«ماذا تريدين؟».

كادت ان تتراجع من شدة الخوف فتابع قائلاً:

«الوقت متأخر ويجدر بك ان تكوني نائمة».

تحملت الالهانة وقالت من بين اسنانها المصطكة:

«يجب ان احدث اليك وأرفض محادثتك والباب مقفل بيننا فأرجوك ان تفتح».

همسات آدم الساخطة كانت مسموعة وهو يدير المفتاح. وعندما افتتح الباب بقي واقفاً على العتبة يحثق مذهولاً بقوام تامي المرتعد،

وقد غلغله القمر بخيوطه الذهبية الخلابية وبدت فاتنة جذابة في قميص نومها الحريري الشفاف.

«يا لله!».

وأضاف بلهجة مجردة من كل اطراء:

«أليس لديك ما هو أكثر احتشاماً لتردينه؟».

بل، كان لديها ما هو أكثر احتشاماً ولكنها أبت الاقرار بذلك. انتقلها لجهازها كلفها الكثير من العناء، فلا البرد ولا المكان العدائي الذي انشأ انساناً عدائين بقادرين على اقناعها بالتخلي عن قميص نومها الحريري لترتدي آخر أكثر احتشاماً.

عندما نظر الى الارض ادركت انه يتهرب من تأثيرها عليه. وسألها باقتضاب:

«ماذا تريدين؟ الأخرى بنا ان نكون في الفراش».

صممت ان تكون جريئة، فتشبث بذراعه وألقت برأسها على صدره وقالت بهمس حنون:

«أجل يا آدم، اني اشاطرك الرأي».

تتابعت انفاسه بصوت مسموع وإذا بيديه تنقبضان على كتفيها وتهزانه بعنف.

قال وهو يصرف بأسمانه:

«تبا لك يا تامي، يجب ان تغلعي عن كل ذلك، أنسمعين؟ تريدان ان تشقي ان تامي ماكسويل تنال كل ما تريد؟».

توردت وجنتاهما خجلاً، وجبست انفاسها، ورفعت رأسها ونظرت الى بحياه الغاضب والتحدي يشع في عينيها وقالت:

«أنا تامي فوكس ولا اطلب سوى محبة زوجي والشعور بذراعيه يطوقاني، هل اغالي في الطلب؟».

بقي صلباً لا يلين، وامسك بذقنها بين اصبعيه وتكلم بنبرة تفيض قسوة:

«طفلة مدللة مشيرة للغضب! العاطفة الوحيدة التي اکتها لك هي

NLO

المحال. لأن والدك الخرف حقق كل أمنية لك، تتوقعين الشيء ذاته من زوجك! ولكن هذا ليس أسلوباً.

واشدت قبضته الى حد لا يطاق وتابع حديثه:

«أريد زوجة تضع احتياجاتي في المرتبة الأولى، وتجعلني مركز اهتمامها، وان تشتغل معي جنباً الى جنب في جميع الاحوال الجوية بدون ان تلذع من البرد أو الاوساخ أو التعب، وانت لا تتمتعين بشيء من هذه المؤهلات».

ويدت السخرية في عينيه وهو يرمقها من رأسها حتى الخصر قدميها.

«لا شك في اننا ستكون منسجمين في المخاللات العاطفية، ولكن ظروفي لا تسمح لي باتخاذ صديقة، بل اريد امرأة تكون لي زوجة طوال الاربع والعشرين ساعة باليوم، لا فتاة غريبة امضي معها هنيهات فراغي».

تجاهلت احتقاره، وركزت اهتمامها على الشروط التي ابداهها فقالت:

«سوف اشتغل معك يا آدم. سأنفذ كل ما تطلب مني. اجد متعة في الطهي والتنظيف وسأكون مقتصدة...».

فأجاب ساخراً والضحكة تنكسر بين كلماته:

«ستقتصدين بطلاء اظفارك!».

وهنا تحركت طباع آل ماكسويل. لقد أذلت نفسها كثيراً امام هذا الجيلي المتعجرف، وزحفت على ركبتيها ارضاء له، ولم تلق منه إلا التهكم والصد، ولكنها لم تشأ الاعتراف بالهزيمة حتى ولو تسلط سيف على عنقها. لم يكن عليها سوى تغيير اسلوبها.

الابن الذي اطلقته بدا حقيقياً، وعندما ارتجت على صدره لم يسهه إلا ان يتلفف جسدها المتهاوي.

«ما بك؟».

كانا يتجادلان بهمس إلا ان الخوف اتساه انه قد يسمعها احد

فازداد صوته ارتفاعاً والقلق يسيطر عليه:

«تلمي، بالله عليك، اخبريني ما بك!».

قالت وهي تنن:

«اشعر ببرد شديد».

«اكون مندهشاً اذا لم تشعرني بالبرد».

أخفت ابتسامة في كتفه وهو يحملها الى السرير، حيث رفع الغطاء العلوي ووضعها بين الاغطية الناعمة، وراح يدلك اطرافها بلطف لتنشيط دورتها الدموية، ووجدت صعوبة في التظاهر بالحمود بينما كانت كل لمسة من اصابعه ترسل الدم حاراً في شرايينها.

كادت ان تنفجر ضاحكة عندما تذكرت كيف انها كانت تتهرب من مثل هذا الموقف، ولم تنس ان تطلق انيناً خافتاً لئولهم ان ارتعاشها مبعثة البرد.

«ضمتي اكثر اليك يا آدم. اعتقد انه سيغمي علي».

جازت عليه الخدعة فضمها وازداد في تدليك اطرافها، تشبثت به بينما كان منهكاً في مهمته، ولم يدرك مدى نجاحها الا عندما طوق عنقه ذراعان حنونان.

تصلب فجأة اذ ادرك انه كان ضحية استدراج الى هذا العناق، وتساءلت تلمي ما اذا كان غاضباً، ثم قررت ألا تبالي خاصة انها شعرت بالدفء يسري في كيانها، وطريقة تنفسه انبأها بانه يدرك كونها امرأة جذابة وعروساً متفتية في حبه.

استغلت هذه الهنيهات وهي تتوقع الصد الحاد المعتاد والسيل من العبارات الجارحة، ولما لم يحصل شيء من ذلك، تجمرات على فتح عينيه، فهالها العاطفة الجياشة التي اثارها في العينين الزرقاوين، وعندما راح يهمس باسمها أدركت انها انتصرت. كان صوته اشبه بماء في ساقية.

«أحبك!».

همستها في اذنه برقة، وشعرت به يرتعش، اقتنعت بأن تصرفاته

NLO

الغظة لم تكن سوى عقاباً فرضه عليها كتعذيب لكي لا تحاول احتواء روحه المستقلة. هذا الرجل الجبلي يريد ان يكون طليق الروح كصقر يحوب الاجواء رافضاً جميع انواع القيود، سواء كانت جسدية او عاطفية او زواجية. كان انطواؤه على نفسه عقبة قامت بينه وبين العاطفة الجياشة التي تكنها له، ولكن العقبة زالت واصبح الصقر مستعداً لان يكون رهن اشارتها وطورع بناتها.

أحسنت وهي بين ذراعيه بمشاعرها تبعث حية وكان العاطفة التي لخصت سنوات طويلة بعثها الحب الى الحياة ثانية. تولتها غبطة عارمة. خيل اليها انه اصبح كلياً تحت سيطرتها الى ان ضمها الى صدره بعقب وراح يوجه اليها العبارات التالية.

«أيتها المغرقة اللعينة والمحتالة الصغيرة! تعمّدت الايقاع بي، ولكن كيف استغل طفلة قادرة على سلب الرجل عقله؟ ترى، اقلكي الانوثة الكافية لتحمل نتائج عملك؟ ام انك تظنني ساذجاً؟ ربما ثقتك بنفسك نابعة من سابق خبرتك؟»

فقال متوسلة:

«لا تجعلني موضع الشك يا آدم».

ووضعت راحتيها على وجنتيه النحيلتين وراحت تتوسل اللين في عينيه الزرقاوين العاصفتين. كانت على استعداد لان تضع نفسها بتصرف هذا الرجل. وبكل حياء وعلى سبيل التجربة حاولت ان تشرح له اسباب تحفظها الذي اثار دهشة واستغراب اكثر صديقاتها تحورا.

«لم استغ فكرة العيش في ضياع دائم مع انني تعرضت الى ضغوط هائلة لكي اسلك هذا السبيل. كنت اريد اتحاداً دائماً مع رجل واحد، ولكن حتى لقائي بك لم يكن هنالك رجل اشعر نحوه بأذى ميل لاشراكه في حياتي. وبدافع غريزتي، كنت واثقة ان الرجل الذي اتشد سيظهر يوماً، ولكي احفظ نفسي له فقط اصبحت اميل الى الوحدة».

وازدادت به التصاقاً، وثمتت ان يبقى على رفته هذه، فيكون لها الزوج المثالي ويحقق لها الحلم الذي يداعب خيلتها منذ ان ادركت معنى الحياة. ثمتت ان يتخلل نهائياً عن تصلبه وازدراؤه لها فتتعم بحياة زوجية هائلة تخيم عليها السعادة بقرب زوج يتفانى في حبها ويكن لها كل تقدير واحترام.

همس في اذنها:

«وما الذي يؤكد لي ان هذا سيدوم؟ ما الذي يضمن لي انك لن تخلفني بعد حين؟»

فاجابت تطمئنه بحماسة:

«لم يمكن في حياتي سواك... لم يكن في حياتي رجل بالمعنى الصحيح. أحسيتك في اول لقاء لنا وحتى والذي لاحظت ذلك، حتى انه...»

كف عن كل حركة وقال:

«اكمل، حتى انه ماذا؟»

ولشدة غيبتها قالت له بحياء:

«حتى انه تقدم اليك بعرض مغر لا يثباتك في لندن، وبذلك اتاح لنا فرصة لتوطيد تعارفنا».

دفع بها بعيداً عنه بطريقة مفاجئة:

«التي بطعم لاصطياد السمكة. كان الأخرى بي ألا اتق بشخص من آل ماكسويل».

لم تصديق تامي ان هذه اللهجة القاسية تصدر عن شفتين كانتا منذ برهة وجيزة تهمسان بعبارات الغزل في اذنيها.

«هذا ينطبق على طباعك، رأيت شيئاً اعجبك فاشتره لك والدك الحرف».

«كلا، كلا!».

حاولت وقد هرزا تأثير الصدمة ان تصلح ما افسده اعترافها الغبي:

٧- انت ضلع من ضلوعي

في الصباح التالي هبطت تامي لتناول الافطار وقد أعدت خطة لمجموعها وهي استقلال نقطة الضعف لدى آدم، ستلازمه وكأنها ضلع اضافي من ضلوعه. ستلجأ الى كل ما تعرفه من فنون الاغراء ضد زوجها العنيد. تمكنت ميغ ماكسويل من تخطي هذه العقبة، فلماذا تعجز هي عنها؟ واذا استطاعت ان تحطم عنقوانه او احراجة قليلاً فسيكون هذا بعض التعويض عما نالها منه الليلة السابقة. التفت العمة فيني في القاعة وابسامتها الماكرة انبأتها انها سمعت الصراخ الذي انطلق من غرفتها. شمخت تامي برأسها لاختفاء خجلها وقالت: «ابن آدم ابتها العمة فيني؟».

LIILAS.COM

«لقد حاول مساعدتي فقط».

فرد عليها بجفاء:

«ساعدك على نيل مشتهاك. لم تري بعد سوى الناحية الطيبة من طباعي ومنعرف رأيك بالناحية السيئة منها».

رفعها اليه ومددها على ركبتيه وراح يسدد الى مؤخرتها صفعات لاسعة متتالية جعلتها تصرخ معترضة غير مبالية بأذان العمتين المثيرة للفضيحة، وراحت تحذائنه تارة، وتعضه اخرى في محاولة لوضع حد لهذا العقاب الاليم. سدّد اليها عشر صفعات اخرى قبل ان يعتبرها قد نالت ما تستحق من عقاب، ثم حملها على كتفيه وكأنها قطعة من متاع وسار بها الى غرفتها وبكل ازدراء القى بها على سريرها ومشى خارجا بدون ان يلتفت الى الامراة المستحبة التي كانت تضرب وسادتها بقبضتيها وتقسم الغلظ الايمان بان تنتقم.

«خرج الى الجبل ليصدر تعليماته الى رعاياه. ستلد النعاج بعد اسبوع او اسبوعين وفي هذه الفترة يجب نقلها من الجبال الى الحقول المجاورة للبيت. الأسابيع القليلة المقبلة ستكون حافلة بالعمل بالنسبة الى آدم، ولن يتسع وقته لك. هذا لا يعني انه ليس بحاجة الى زوجة».

وظهر التعب في عينها فاضافت:

«وخاصة في موسم تجز الصوف، فهناك عشرات الجياع يجب اطعامهم».

انتصبت وقد زال تعبها العابر وتابعت قائلة:

«هناك عشرات الحسانوات المحليات كن يتمنين الاقتران بآدم، وهن قويات البنية ويعرفن كل شيء عن حياة المزارع الجبلي، ولكن لا، كان لا بد له من المجيء بغية مثلك».

انصرفت حائقة فانطلقت تلمي في الاتجاه المعاكس وتوردت وجتاتها انفعالاً ودغدغ لسانها جواب سريع لجمته. لولا امارات التعب التي بدت على العمة فيني لثالث ما يوجهها من لسعات لسان آل ماكسويل.

انفجرت اساور العمة هونور عندما دخلت تلمي الى المطبخ، وكانت تحيتها لطيفة بعكس تحية اختها اللاذعة.

«طاب صباحك، ارجو ان تكوني قد نمت جيداً و...».

وبان عليها الارتباك فقالت:

«ما اعنيه هو...».

ويعد ان استعادت تلمي هدوءها، سكبت فتجأتاً من الشاي في اناء فخاري اسمر واضافت اليه القليل من السكر ثم قالت:

«ما تعنيه هو انك سمعت صراخي عندما ضربني آدم في الليلة الفائتة. لا تقلقي، اني انوي الانتقام».

كانت العمة هونور تدعك الطحين بالسمن لصنع الحلوى فتوقفت اصابعها عن الحركة لدى سماعها كلمات تلمي، واتسعت

حدقتها وراحت تفكر بهذه الاجابة الغريبة.

«لا اقصد التدخل في شؤونك يا عزيزتي».

قالتها بينما كانت تلمي تقضم بسداجة قطعة من الخبز المحمص ثم اضافت:

«أقولك تلمي بان زواجك من آدم سيكون عاصفاً كزواج جيمس من ميغ».

فاجابتها موافقة:

«يبدو انها يسيران في خطين متوازيين، ولكنني مثل ميغ انوي ان انتصر في النهاية».

تجمعت البشرة المحيطة بقم العمة هونور لترسم الف ابتسامة صغيرة:

«ادعوك بالتوفيق يا عزيزتي. لا تترددي في طلب المساعدة مني عند الحاجة».

انتهت تلمي من تناول الشاي، ودارت حول المائدة لتعانق المعجوز اعراباً عن امتنانها:

«شكراً لك».

وطبعت على وجبتها قبلة محاطفة:

«اني بحاجة الى كل حليف ممكن. ارشدني الى مكان آ

سارت العمة هونور... اشارت باصبعها الى

وعلى عجاها مسحة من الماء.

«قرب قمة الجبل كوخ للرعاة ولا انصحك بالذهاب بمفردك، في الطريق صخور ملساء. في اي حال سيكون آدم قد رحل لدى وصولك. السير على الجبال خطر على الوافدين الجدد.

خبر لك ان تنتظري عودته».

وسألت تلمي مستاءة:

«أيعود في موعد الغدا؟».

«كلا، الاتصال بالرعاة وتفقد القطعان يستغرقان النهار بكامله،

وقد حل معه زاده وماءه، ولا تتوقع عودته قبل المساء.
«لا استطيع الانتظار ههنا بكامله. لا بد من وسيلة لوصولي اليه».

امعنت العمة هونور التفكير وقالت:

«ثمة احتمال ضئيل في ذهابه الى النزول الذي في الوادي. المزارعون هنا يتخذونه مكانا للقاءاتهم، بحيث يتناولون المرطبات مع الطعام، واعتقد ان آدم سيكون هناك في موعد الغداء. ولكنها مسيرة طويلة وليس ما يضمن ان تجدي من يعيدك بسيارته. الا تجديك ان تأخذني السيارة؟».

«كلا، ارجب في المشي. اكتبني لي توجيهاتك لبلوغ المكان، بينما اصعد واستبدل حذائي».

«الطريق بسيطة جداً، تنطلق من فوكس هول، تتعرج وتدور حول الجبل الاسود الكثيب المطل على الوادي. سيرى على الطريق قري النزول وهو البناء الوحيد في تلك الناحية».

قررت تامي اصطحاب الكلب المدعو سيلفر وانطلقت على الطريق والكلب يقفز في اعقابها. ارتفعت معنوياتها ارتفاع الصقر الذي شاهدته يخلق فوق رأسها وقد ظهر بوضوح في السماء الزرقاء الصافية.

معظم الثلج قد ذاب عن الجبال، وتحولت الريح نحو الشمال، ولسعة البرد دفعت تامي الى حث الخطى. ابتسمت للشمس فوق الجبل القاحل الكثيب الخالي الا من بضعة خراف ومن طير عابر. ابتسمت تامي لشعورها بكونها ابنة هذه الارض.
«سيلفر».

نادت الكلب الذي تخلف قليلاً وابتهجت عندما استجاب لندائها بوثبة.

بعد مسيرة ساعة تراخت خطاها. وسيلفر الذي كان قبل نصف ساعة قد ربض ورفض ان يتحرك، كان يزن قنطاراً وهو ينعم بنوم

هائىء داخل سترتها. تحت لواها حملت الطعام الذي عرضته عليها العمة هونور. لم تحمله لاقتناعها بأنها ستتناول الطعام في النزول الذي لم يظهر له اثر بعد، وبالإضافة الى الجوع فقد اخذ العطش منها كل مأخذ.

استأنفت المشي نصف ساعة اخرى وهي لا تجرؤ على التفكير بمسيرة العودة. قالت تحدث نفسها:

«قد اجد من يعيدني بسيارته».

وهزت رأسها، طوال مسيرتها لم تمر بها سيارة واحدة. ولحقت من بعيد بناء جازمت بكونه النزول، وحشت الخطى، وعندما اقتربت اخذت تبيين تدريجياً يافطة تحمل رسوم كلاب وحياد وفرسان وتحتها عبارات الترحيب.

«نزل الرياضيين».

لم يكن النزول سوى بيت اجريت عليه بعض التعديلات، له غرفة امامية فيها ست موائد صغيرة نظيفة، على كل منها صحون سجاجير فارغة. لم يكن في الغرفة احد. وسمعت تامي اصواتاً مصدرها رواق يؤدي الى خلف البيت، وفيها هي تتجه نحو الصوت برزت امرأة من باب الى يمينها ومدت لها يداً اوقفتها.

«الصالون الى اليسار يا عزيزي، المقهى للرجال فقط».

«اني ابحث عن زوجي، اتعلمين اذا كان هنا؟».

جالت المالكة ببصرها في ينظرون تامي وحداثها الثمين وسترتها المزركشة وردت ببشاشة:

«لا اظن ذلك، ولكنني ساعرف اذا قلت لي اسمه».

وعندها سمعت تامي صوت آدم الرنان:

«هذا صوت آدم».

قالتا للمالكة التي فتحت فمها دهشة.

«ولا داعي لازعاجك، سأجد طريقى اليه».

تركزت الامراة فريسة للدهشة واندفعت في الرواق الى ان دخلت

تساجى».

اتحنى برصانة وقال:

«تشرفنا، أرجو ألا تجدي هذه الضاحية نائية جداً، أما إذا شعرت بحاجة إلى رفيقة تفضلني إلى منزلي وأنا واثق أن ابنتي بام يسعدنا التعرف عليك».

ازداد الجو توتراً، تردّد اسم الفتاة في جو الغرفة منتقلاً من شفة إلى أخرى، يهمسون به ساترين الفواهم بأيديهم، وساورت تامي الريبة. أيا كانت بام هذه فهي على علاقة مميزة بآدم.

قطع حبل الصمت رجل يجلس في إحدى الزوايا إذ قال:

«النساء! أما من مكان نقصده لتتخلص منهن؟».

تجاهل آدم نظرة تامي الساخطة وبدلاً من توبيخ المعجوز على تحته أمسك بذراعها بعنف وسار بها إلى خارج المقهى. وزاد سخطها عندما توقف بالباب والتفت ليعتذر.

«أرجوكم أن تعلموا تطفّل زوجتي فهي لا تعرف تقاليدنا بعد. أهملوها قليلاً فتدرك أن مجتمعنا لا يسمح للنساء باقتحام أماكن تجمع الرجال، ولكنها ستتعلم ذلك بسرعة».

وبينما كان يدفع بها في الرواق اعترضت قائلة:

«اني عطشى ولم اشرب بعد».

تجهّم وجهه وفتح باباً ودفع بها إلى الغرفة الامامية الصغيرة التي كانت قد رأتها.

«اجلسي في الداخل، ماذا تريدان ان تشربي؟».

«أريد كوباً من العصير، من فضلك».

قالتها بكل دعة وتهذيب لو سمعها والدها لادرك أنها تضمّر مكيدة.

بينما كانت تنتظر عودة آدم، أخرجت سيلفر من مكانه ووضعته على الأرض متجاهلة عواءه اعتراضاً، وعندما عاد آدم يحمل كوباً واحداً رفعت حاجبها تسألاً لا:

غرفة مستطيلة منخفضة السقف كانت في السابق مطبخاً تم تحويله إلى مقهى، شغل الموقد أحد جدرانها بينما اصطففت مقاعد خشبية بمحاذاة الجدران الثلاثة الأخرى ليشغلها ما يقارب العشرة رجال يتبادلون الأحاديث الودية وسحب الدخان تصاعد من غلايتهم القديمة، وكان برفقة بعضهم كلاب تربض بصبر عند أقدامهم. اندفعت تامي إلى الداخل وساد صمت غريب وكان الحديث قطع بسكين. كان آدم يجلس وظهروه اليها، ولكنه استدار متتبعاً نظرات الدهشة التي تملكت رفاقه.

علت وجهه ملامح غريبة. اتكأت تامي بدلال على الباب وأدركت أنّ لحظة انتقامها قد دنت وبانت على الوجوه المحيطة بها أمارات الاستهجان لاقتحامها مكاناً معداً للرجال فقط.

كانت تتحرّق شوقاً لأن تصبّ الزيت على نار الرجولة المتمتة. «آدم حبيبي».

وأمام عيون الحضور المحلقة دهشة، جرت نحوه وطوقت عنقه بذراعيها وضمت اليها في عناق حار طويل.

شلت الدهشة حركته، ثم امتدت يدها الخشنتان إلى خصرها ودفعها بعيداً عنه. وإمام هذا الإحراج وإدراكه لمغزى صمت رفاقه لم ير بدأ من اجراء التعارف بصوت أجش:

«أقدم اليكم زوجتي تامي... تامي، هؤلاء هم بعض جيراننا».

اصغت اليه برهة فائقة وهو يتلو سلسلة من الاسماء وكأنها معزوفة لجوقة الشرف. في الليلة السابقة تصفحت «المحاكمات الجنائية» لبيتكرن، الكتاب الذي سجل بدقة تفوق دقة سجلات دهرت عن العائلات الحدودية الرئيسية والمتنمين اليهم. الاسماء التي كان يتلوها آدم هي الاسماء اياها التي قرأتها في الكتاب: لوثر، كروين، سالكيلد، ديكر، روتليدج، نوبل، مسيروف، وآخر من قلعه آدم من رفاقه كان طوم هردن، الذي بدا مرتبكاً لزواج آدم

«الا تنوي مجالستي؟»

عقد ذراعيه على صدره وعلى عيائه امارات نفاذ الصبر وقال:

«كلا، لا وقت لدي».

«وقتك لا يسمح لك بالتفرغ لي ابداً».

وراحت ترشف العصير بتمهل.

«سيكون وقتي اكثر ضيقاً في المستقبل. كيف تجرؤين على

احراجي امام اصدقائي بتلك التحية العاطفية السخيفة؟ تعمدت

هذا العمل، اليس كذلك؟».

لم تفته حمة الحجل التي خضبت وجنتيها:

«ارى اني على حق. كان ذلك انتقاماً مدبراً وكنت تعلمين ان

المقهى محظّر على النساء».

وضعت كوبها وقالت:

«كنت اجهل ذلك، حتى ولو كنت اعلم لما باليت ولتجاهلت تلك

التقاليد الخرفاء. الا تعلمون يا معشر الغزاة ان قانوناً صدر بمنع

التمييز بين الرجل والمرأة؟ لم يبلغ اذانكم المنعزلة انه لم يعد محظراً

على النساء ممارسة اية مهنة، فكيف بالحري لوتباد المقاهي التي تحت

سيطرة الرجال؟ سأذهب حينئذ اشاء واذا تعرضت لأي سؤال

فسأقول ان مكان المرأة هو بجانب زوجها! لا ارضى بالبقاء مهملة في

فوكس هول بينما تسعى انت كل يوم وراء ملذاتك. اريد مرافقتك

واذا حاولت منعي فاني سأخلق بك، وعندما اعثر عليك سأحيك كما

فعلت اليوم. لا اخجل من اظهار مودتي بل اجد متعة في ذلك، وقد

يحذو اصدقائك حذوي اذا وجدوا من يعلمهم».

«لن تفعلين!».

«جرّيفي!».

كان يعلم انها جادة في كل ما قالت، بالرغم من علمها ان اهالي

الشمال قوم عاطفيون فانهم يملكون القسط الاوفر من التحفظ

الانكليزي. التصرف المشين الذي تحدثت عنه سيكون فظيلاً بالنسبة

الى آدم.

قال وهو مقطب الجبين ويتحرّق شوقاً الى خنقها بيديه

الشنجنين:

«هذا ابتزاز. ميزة اخرى من ميزات آل ماكسويل تظل براسها

اليشع».

ردت بكل جرأة:

«غيب الى أن تصرفني كان ثناء على رجولتك، سمه ما شئت

فالتيجة واحدة، سألازمك وكأني ضلع من ضلعك وقد تحذو حلو

من تحمل اسمه فتستبدل ضلعك بزوجة».

«وامضي حياتي البائسة ناتماً مثله؟».

وساورته رغبة شديدة في ضربها مرة اخرى.

ابتعدت تامي عنه وهي تضحك بعصية:

«اني مستعدة للعودة الى البيت الآن، اظنني سمعت صوت سيارة

في الخارج وقد يتكرم احدكم ويوصلنا».

استدار على عقبه وهو يتنفض غيظاً:

«لا احتاج الى من يوصلني، لم انجز عملي هنا بعد».

فقالت:

«وكيف عساى ان اعود؟».

«عودي كما آتيت، سيراً على الاقدام، وليت الطريق تطول ثلاثة

اشعافها اثناء عودتك».

وانفجرت بوجهه قائلة:

«متعجرف، فقط، عديم الاحساس، اتريد سيلفر ان يمشي حتى

تسعى قوائمه؟».

انتصبت اذا الكلب لدى سماع اسمه وشع الاسى في عينيه

التي تركزت على وجه آدم. وبالرغم من استهتاره براحتها فانه لن

يرك الكلب للمصير الذي ستلاقيه. رفع الكلب اليه دمه داخل

سترته.

NLO

«لا يعرض هذا الكلب، وما زال عمره تسعة أسابيع، الى مصرير كهذا سوى من كان عديم التفكير مثلك. ساعده معي».

استدار عل عقبيه وحدثت تامي به. لا يمكن ان يتخلل عنها. فوكس هول يبعد خمسة اميال.

«آدم، انتظرا».

وانطلقت الى الخارج لتتوسل اليه، وعضت على شفتها من شدة الألم. ابطاً هو الخطي ولكن ليس من اجلها بل لأن سيارة انحرفت عن الطريق وتوقفت الى جاتيه، وبينما كانت تامي تعرج لما اخفضت سائقة السيارة الزجاج وأطلت برأسها.

«آدم، حبيبي، لم اعلم بعودتك. لماذا لم تخبرني هاتفياً؟».

توقفت تامي ونسيت لها وانتصبت قامتها لتسمع رده. نادته الفتاة بعبارة «حبيبي». ثارت كرامتها وساءت هذه المودة.

عبوس آدم تحول الى ابتسامة:

«مرحباً يا بام. لم يسمح لي الوقت للاتصال بك. عدت بالأمس فقط ووجدت امورا كثيرة مهمة اثناء غيابي».

«اني ادرك وضعك».

ابتسامة الفتاة المتساعجة جعلت الدم يغلي في عروق تامي.

«اتعدني بالمجيء للعشاء الليلة؟».

وفيا هو متردد ترجلت الفتاة من السيارة، انها تضاهي آدم طولا، متناسقة القوام مياسة القد، نحلة الخصر. وبينما كانت تامي تعرج الى الامام ترددت كلمات العمة فيني في اذنيها:

«عشرات الحسنات المحليات يتمنين الاقتران بآدم».

وهذه الفتاة احداهن ولا شك. كانت ترمق آدم بنظرات نهمة واصابعها تداعب كم مشرته برفقة واهتمام. وصلت تامي اليها وسمعت رفض آدم:

«انا آسف يا بام، هذا غير ممكن الآن، ربما في وقت آخر».

قفزت تامي بقدميها:

«بل، هذا ممكن يا حبيبي، أتوق للتعرف باصدقائك وهم حتى يتقنون للتعرف بزوجتك».

نحيم عليهم صمت مشحون، وكان الشقراء الفتاة تحولت الى صم، وبانت الصدمة في عينيها الخضراوين وهما تحتاحان وجه تامي متسائلتين عن حقها في اقتحام عالم لم يكن فيه حتى تلك اللحظة سواها. وشعرت تامي بموجات الحقد الموجهة اليها فازتعدت وازدادت اقترابا من آدم فصدمتها منه نظرة باردة تحمل الكثير من الكراهية.

شعرت وكأنها قزم بين ماردين، وانتظرت، عاجزة، منبودة ومع ذلك مصممة على التثبت بحقوقها.

ثمالت الفتاة نفسها وكانت الصدمة لا تزال مسيطرة على صوتها عندما ضحككت وقالت:

«زوجتك يا آدم؟».

تصافحتا وكأنها توقعان على معاهدة ملاسة باطراف الاصابع، كصانحة يتبادلان ملاكمان قبل المباراة.

ترقق الذمخ في العينين الخضراوين ولكن صوت بام كان مرحاً عندما قالت:

«يجب ان نجتمع كل اصدقائك، وكما قالت زوجتك يا آدم، انهم يتقنون للتعرف بالعروس سأنصل باكير عدد ممكن منهم وأدعوهم الى سرتي هذا المساء. هل الساعة الثامنة موعد مناسب».

اجابت تامي عن نفسها وعن آدم:

«شكراً لك، انه مناسب جداً».

«عظيم، وبما ان الجو ينذر بهبوب العاصفة، هل استطيع ان اوصل ابا منكم؟».

كان الجو فعلاً ينذر بعاصفة تهب من عيني آدم وهما تستقران على تامي، وشجاعة فائقة تجاهلت استياءه وقبلت الدعوة:

«هذا لطف كبير منك. لا يزال آدم مشغولاً هنا وانا اتقن العودة

NLO

الى فوكس هول».

بدا حائراً بين واجبه وبين تردده في ترك تامي لوحدها مع بام ولو للمسافة القصيرة التي تفصلهم عن فوكس هول. نظر الى ساعته وقال:

«بما اننا سنتناول العشاء معك هذا المساء، خير لي ان انصرف الآن يمكن تأجيل العمل».

بعد ربع ساعة انزلتهما بام عند عتبة فوكس هول رافضة تلبية دعوتها للدخول متذرعة بالترتيبات التي عليها القيام بها لأجل حفلة العشاء. وبوجه مكفهر وابتسامة جامدة على شفيتها انطلقت بسيارتها عائدة ادراجها.

أخذت تامي نفساً عميقاً قبل ان تنقل المعركة الى معسكر العدو: «بام رائعة الجمال. يبدو ان علاقتكما حميمة».

لم يتجاهل آدم علامة الاستفهام التي خلفتها عبارتها: «علاقتنا حميمة فعلاً».

قالها بنبرة وحشية، ثم تابع باصرار: «ولأوفر عليك مشقة السؤال سأرضي فضولك فأقول لك ان بام هي الفتاة التي كنت أفكر جاداً باتخاذها زوجة لي».

٨- هل ييزغ علي القمر؟

بينما كانت تامي ترتدي ملابسها استعداداً لحفلة العشاء ابت على نفسها ان تبدو مكتئبة. لا يمكن الاستخفاف بعرض الزواج الذي كان يلاقي التفكير الجذبي ويبدو أن آدم نجا منه باعجوبة، مع انه بعقليته الراهنة لا يقر بذلك. ولشعوره بأنه وقع في زواج ليس من اختياره فان الفتاة التي ملكت عليه لبه تتمتع بفضائل لا وجود لها. جميع الرجال يتمنون ما لا يستطيعون نيله. جمال بام البارد الذي أصبح بعيد المنال هو الآن سراب في أفق آدم، بينما هي المتحسسة والراغبة فيه والتي في متناول يده أصبح عيبها الوحيد هو كونها سهلة المنال.

رسمت لنفسها خطة وهي ترتدي ثوبها الحريري المزركش الانيق

الباهظ الثمن، وراحت تحدث نفسها قائلة: «عليك ببرود
الاعصاب يا تامي، لأن رجلك الجيلي يجب ان يكون هو الصياد،
تثيره المطاردة وتفتنه المراوغة ويزدري الطبيعة، لينة العريكة. اذا كان
لا يستيخ الحلو فأذيقه المر قليلاً».

هبطت الدرج بنؤدة ودلال وكثفاها الفانتان تيرزان من غمامة
ثوبها الرقيق ذي الالوان الازرق والاخضر والبنفسجي، وقد طوق
خصرها حزام أثبت أن القوام الرشيق الذي تغلفه هذه الغمامة ليس
ساذجاً كما يبدو، بينما انتعلت خفين بنين يبرزان من تحت الثوب
الذي يطلق حفيفاً موسيقياً لدى كل خطوة. نفحة عطر منعشة
سبقتهما لتعلن مقدماً عن حضورها وهي تتجه نحو آدم الذي كان
ينتظرها في القاعة وعينه المكفهرتان مثبتتان على شعار العائلة.

فوق نصف دائرة من النجوم ظهرت عبارات باللاتينية. ووقت
تامي على رؤوس اصابعها تقرأها من وراء كتفه بصوت مرتفع ويلفظ
محطم خاطئاً.

وما معنى هذه العبارات يا آدم؟.

فقال مترجماً:

«سيزغ علينا القمر ثانية، هذا وعد من الغزاة بالعودة عندما يحين
الوقت لجمع المستحقات».

وتذكرت الليلة السابقة، وفي غرفتها التي يغمرها نور القمر كيف
انها عرضت على احد الغزاة مستحقاته فرفضها. هل يحقق يوماً
الوعد الذي يحمله شعار العائلة؟ وهي، هل سيزغ عليها القمر
ثانية؟

ارتعشت عندما هبت الريح حول كاحليها، ومدّت يدها اليه
وفيها دثار، أمله في ان تتكئ به واما تلفان كتفيها بالذثار وان يحرك
عطرها مشاعره فيدرك اهتمامها به وتجد لديه استجابة، ولكن
لمسته كانت عابرة وهو يلف كتفها بالذثار وقال بصوت يغلفه
البرود.

«فلتطلق اذا كنت جاهزة».

لا شك أن بام امضت ساعات طويلة على الهاتف، هذا ما دل
عليه عدد الاشخاص المنتظرين لاستقبالها عندما دخلت القاعة
الرئيسية في بيت أصغر من فوكس هول، ولكنه يضاهيه فخامة وقد
ازدانت الجدران بصور لآل هاردن تكررت ملاحظتهم في وجوه الذين
تجمعوا لتقديم فروض الاحترام لآدم ولللقاء التحية على عروسه.
أول صدمة لتامي كانت عندما اخذت بام بيدها وسارت بها نحو
اقرب مجموعة من المدعوين وراحت تجري التعارف بطريقة رسمية،
ليدي فوكس، اسمحي لي ان اقدم اليك عمي آن هاردن، وزوجها
عمي طوبي».

ردت تامي كالحائلة على الابتسامات والتمنيات الطيبة
والمجاملات، محاولة طوال الوقت جمع شتات افكارها لاستيعاب
اللقب الذي اضفي عليها بهذه الطريقة الشائبة. «الليدي فوكس».

لماذا لم يجبرها آدم بذلك قبلاً؟.

كان آدم قد توارى بين الجموع تاركاً لبام امر اجراء التعارف الذي
قامت به بكل اجلال، ممّا جعل تامي عاجزة عن كتمان اعجابها.
واخيراً وبعد ان انجزت بام مهمتها، حملت صحنين من الطعام الى
ركن هاديء حيث اسقطت القناع عن وجهها.

وبطريقة هجومية سألتها:

«كم طالبت فترة معرفتك بآدم قبل زواجكما؟».

فردت تامي بحدّة متخلّة وضعا دفاعياً:

«فترة كافية».

«لم تكن فترة كافية لتكتشفي انك ستفترنين بلورد، اجل يا
عزيزتي، لاحظت دهشتك عندما عرفت عنك باسم الليدي فوكس،
اعترفي انك كنت حتى تلك اللحظة تجهلين ان آدم يعمل لقباً
كهداء».

تغلملت تامي، ليس من السهل خداع بام.

«لا شك ان آدم نسي ان يخبرني، وربما كان مثلي يعتبر هذه الامور غير ذات اهمية في المجتمع المعاصر».

اطلقت بام ضحكة لطيفة:

«ولكن علمنا لم يتبدل منذ عصور. صحيح اننا عصريون ظاهرياً ولكننا بالاساس مجتمع اقطاعي يولي آدم ذات الاجلال والاحترام اللذين لقيهما اول لورد من آل فوكس وهو حاكم من القطاع الغربي الانكليزي، قدمت له كل عائلة في هذه المنطقة الولاء. وقد ورث آدم عنه المقدرة القيادية والنزعة الى اصدار الاوامر والقسوة عندما تدعو الحاجة. ولكن ليس ما يدعوني الى قول ذلك».

كانت ضحكتها تفوق الثلج برودة، تابعت:

«الأ اذا كان اقترانك باللورد فوكس ليس اكثر من كرة رينارد البلورية».

رفعت عينها متظاهرة بالدهشة لما يبدو على تامي من حيرة وازفادت:

«لا شك انك قرأت قصة ايسوب المفروض ان يكون رينارد الثعلب قد ارسل كنزاً ثميناً الى ملكه ولكنه لم يصلها ابداً لانه لم يكن له وجود الا في خيلة الثعلب المحتال، المفروض ان الكرة البلورية تكتشف ما يجري مهما كان بعيداً وتعطي المعلومات عن اي موضوع يطلبه السائل. يمكن تشبيه زواجك بكرة المعلم رينارد البلورية، وعود كثيرة لا تنفذ».

تحية ساخرة وابتعدت بام تاركة تامي تعمل طعنا بشوكتها في صحن الطعام. كانت دموع المهانة ملحة.

هبت كرامة آل ماكسويل لنجدتها فراحت تحفف دموعها المحبسة قبل ان تندرج على وجنتيها. لو ان ميغ ماكسويل رضخت للهزيمة لما اتجبت لزوجها المتعجرف ثلاث بنات وسبعة ابناء.

التفتت تبحث عن آدم فرأت رأسه يرتفع على جميع الرؤوس، فعمشت باعتزاز والبريق يشع في عينيها بين جموع آل هاردن الى ان

سحت بجانيه. نظر اليها وعقد حاجبيه. ادرك امارات الخطر التي من وجنتيها المتوهجتين فغمزت البهجة قلبها. ليس الزواج ترقياً جسدياً فحسب بل هو قران بين عقليتين ايضاً وقد اصبح آدم صديقاً لزوجها.

وسرعة مديده وامسك بيدها، يجب ألا يدرك الحضور الذين يحضرونها انها خطوة دفاعية لانه تذكر تهديدها باظهار عواطفها علناً كلما شعرت باهماله لها.

«هل تستمتعين يا حبيبي؟».

كادت العبارة العاطفية ان تخنقها وهمست برقة وحنان:

«اني استمتع الآن».

ويكل مكر شعرت بانها كوفئت لدى رؤية وجهه يتجههم.

بينما كان رفاقه يتعلمون ويتبادلون النظرات المتسائلة المحرجة صدحت الموسيقى فتوجهوا ازواجاً نحو القاعة حيث خلت الارض من السجاد لتصبح حلبة فسيحة للرقص. وينظرة تفيض حقداً ونحني رغبته في مزها بكتفيها الى ان تسترحه، امسك آدم بذراع تامي واتجه بها الى خارج الغرفة:

«هلمي بنا ترقص».

انتابها شعور مبهم هو مزيج من الحلاوة والمرارة: ما اجل التعامل بين ذراعيه في رقصة «الفالس» الشاعرية. واعمضت عينها محاولة ان تتخيل متعة كونها بين ذراعي من تحب، ولكن العبارات التي كانت تنصب في اذنيها لم تكن شاعرية.

قال لها بصوت ينم عن اليأس:

«يجب ان تتعلمي التصرف بهذيب اكثر وخاصة امام الناس. اعلم انك معتادة على مجتمع يجوز فيه كل شيء، واطنك تستمتعين بنكتة كبيرة على حسابي ويجب وضع حد لذلك. الاظهار الصاخب للعواطف يجرح اهالي الشمال، ولن اقبل بعد الآن بان تجعليني هدفاً لنكاتك الغريبة، فارجوك ان تكفي عن ذلك وتصرفي

قاملته بلطف:

«بصفتي ليدي؟ ولكنني حتى هذا المساء كنت اجهل اني ليدي.
لماذا لم تخبرني؟»

بدا عليه انه مأخوذ، لا ملذب، رق قلبها له، من الواضح انه لم
يتعمد عدم اخبارها.
وقال معتذراً:

«انا آسف، كان يجدر بي ان اخبرك، ولكنني بالواقع لا اعتبر هذا
الامر هاماً. لا نفع للالقاء بالنسبة للمزارع».

ضحكته الساخرة المفاجئة جعلت قلبها يخفق، تابع قائلاً:
«وغرافي لا تفهم بالالقاء وسيان لديها ان كنت اضع على رأسي
تاجاً او قبة من القماش!».

وداحت تفهقه وتراخت القبضة الفولاذية التي كانت تطوق
خصرها، وازدادت رقة وهما يرقصان ويضحكان معاً ويستمتعان
بالفكاهة المشتركة. وبدأ ان الحيط السحري الدقيق الذي يربط بينهما
يزداد متانة وهما يقرمان بالرقصة تلو الاخرى بدون ان يحاول التخلي
عنها. ربما كان يتظاهر امام الناظرين عندما ادناها منه اكثر ووضع
خده برقة على شعرها وامطرها بالابتسامات العذبة مما جعل ركبتيها
تعجزان عن حملها. ربما كان يطبق عليها اسلوب الغزاة وهي لعبة
ذكية للبقاء مسيطراً عليها وعلى عواطفها، ولكنها لم تبال حتى ولو كان
الامر كذلك. اولاهما كل اهتمامه وهذا جل ما تريد. كانا يدوران
حول حلبة الرقص عندما اعترضت بام سبيلها وقالت:

«آدم، انك تحتكر زوجتك بطريقة معيبة! ديرك بيتي وصل متأخراً
ويتحرق شوقاً للتعرف على زوجتك».

استدار آدم برشاقة ليحيي الشاب الواقف الى جانب بام:

«انا آسف».

ومذ يده:

«مرحباً، ديرك. كيف حالك؟ تامي، اقدم اليك ديرك بيتي، انه
من اقرباء بام. ثمة قواسم مشتركة عديدة تجمع بينكما».

قال ذلك بنبرة جافة واضاف:

«بالاضافة الى كونه مثلك ينحدر من اصل سكوتلاندي فان ديرك
يمضي معظم اوقات فراغه مستمتعاً بالحياة في المجتمع اللندني».
نظرة تامي الحانقة الى ديرك، اربكته ولكنه تمالك نفسه بسرعة
دلت على سعة دماغه، فانحنى بشهامة على يدها الممتدة وقد تركزت
عيناه المعجبتان على حياها.

لمست بام كم سترة آدم وقالت:

«الكولونيل جفرسون يبحث عنك ويود عادثتك في أمر هام».
وبينما تركزت نظرة تامي الحزينة على ظهرها المتعدين قال ديرك
مستغزاً:

«كانك تودين احياء تقاليد قبيلة سورا في بوشي التي تقضي بان
يلتئم زعيم القبيلة الامراة التي تدان بتهمة شائنة».

استدارت اليه وفي نيتها تحطيم عتفوانه بالاحتقار، ولكن وميض
عينيه كان سريع الانتشار مما ارضعها على الضحك.
وقالت مراوغة:

«هل مشاعري نحو الرجل ظاهرة بهذا القدر؟».

فرد بصفاقة:

«فقط لمن هو شديد الملاحظة مثلي، ولكن يدهشني افتقارك الى
الحيلة. ظننتك تعلمين ان هؤلاء الشماليين المتخلفين يلزمهم حافز
للمطاردة قبل تقديرهم لغريبتهم».

رمقت هذا الشاب العايب، الضاحك العينين، المرح الحديث
فوجدت انها معجبة به واعترفت قائلة:

«اعلم ذلك، ولكنني لا أجرؤ على الجري خوفاً من عدم لحاقه
بي».

قابل صراحتها بابتسامة:

«اسمحي لي اذن ان اقدم نفسي طعماً لاصطياد الثعلب الماكر،
واؤكد انه سيلتقط رائحة المنافسة بسرعة».

عرض الفكرة بطريقة عابرة وحارت في كونه جاداً ام هي مجرد
بادرة. ادراك تامي لعنفوان آدم جعلها تتردد قليلاً، ولكنها شعرت
بانها في مأمن لعلمها ان ديرك سوف يمارس اللعبة بحسب القاعدة
التي تريدها هي، وكان بارعاً في فن الغزل الخفيف ولا يميل الى
التورط وابدت موافقتها بطريقة عابثة.

«اتفقنا، ولتر اذا كان فنيل الدعاية سيفجر نار غيرته».
لم يكونا بحاجة الى وضع خطة، فهما خبيران في هذا المجال،
وسريعاً ما تسلطت عليهما النظرات الخفية وهما يتنقلان واليد باليد
والعين في العين، متقاربين عندما يرقصان، متلاصقين عندما
يجلسان، منهمكين في حديث اعتبره ديرك مسلماً، بينما صبغت وجنتا
تامى بحمرة الخجل.

«استمري هكذا، اننا نحرز تقدماً».
قال ساخراً ولم ينس ان يطلق ابتسامة رقيقة وهو يمرر اصبعه على
حاجبها.

«الرقصة الاخيرة هي التي حركت كل شي».
وارتسمت على شفيتها ابتسامة تفيض حياء.
«بالغت في ضمي اليك واؤكد ان لثائنا سمعه من في الغرفة
المجاورة».

فابتسم وقال:

«قليلاً اذن ويظهر آدم».

ورفع رأسه وهتف:

«صلى حدسي، ها هو قادم».

تشنجت تامي. لن يكون اللورد فوكس مسروراً بسماع اسم
زوجته يتردد على كل شفة ولسان، ولكن لا بأس ما دامت النتيجة
ستضع حداً لاهماله المخيف، قالت ذلك في نفسها ورعشة داخلية

لتحاربها.

بالرغم من جلوسها بمواجهة الجدار فقد احست بأدم يتقدم نحوها
وسرت فيها رعدة من الخوف وركزت عينها على عيا ديرك
وقالت:

«هلم بنا ننزه في الحديقة».

كان احد الابواب مفتوحاً قليلاً لادخال الهواء البارد للراقصين،
ويكل ثقة بنفسه تظاهر ديرك بعدم رؤية آدم وهب على قدميه
ليرافقها الى الخارج. تأبطت ذراعه وهي هبة للاضطراب وسمحت
له بان يسير بها نحو شرفة لها ادراج تؤدي الى حديقة يغلفها الليل.
ادركت انها انشطت عندما لفح الهواء المثلج كثفها العاريتين

وارتعد بيتي هلعاً أكثر منها من شدة البرد.

قطع صوت آدم عليها الحديث:

«هلا احضرت دثاراً لزوجتي يا بيتي؟».

فألها بلهجة أمرة انصاع لها بيتي بسرعة.

استدارت تامي وهي تنوي القول انها مستعدة للعودة الى
الداخل، ولكن الكلمات جمدت على شفيتها عندما استقرت سترة
على كثفيها. البطانة الخيرية الدافئة لامست بشرتها الناعمة وما
زالت رائحة السيجار تفوح منها. لفت جسدها بالسترة وشعرت
بالدفء والحماية، ولكن ابدت اعتراضاً لأدم الشامخ فوقها بقميصه
الأبيض.

«ستصاب بالبرد يا آدم، فلنرجع الى الداخل! كان خروجي الى
هنا حماقة، لم يخطر لي أن الهواء بارد بهذا القدر».

برود نبرة صوته دل على مدى استيائه.

«انا كنت على حق اذن، تبين لك فعلاً ان قواسم مشتركة عديدة

تجمع بينك وبين ذاك الماجن».

لاحظت استيائه واستعداده للمشاجرة، فانكمشت على نفسها
من الرجل الطويل المتحيز للانقضاخ عليها لدى اي بادرة تبدو على

NLO

عماها فتكشف حقيقة امرها. لا شك ان البارون فوكس الاول كان يستجوب اسراء بهذه الطريقة.

NLO

اطلقت ضحكة عصبية وقالت:

«كنت اجهل ان ديرك ماجن».

واستغسر بفضول:

«لا شك انكما تطرقتما الى مواضيع عديدة!».

تشبث بسترته كدرع تحميها من الشيطان المنفعل، وقالت:

«نحدث عن تقاليد القبائل الافريقية، انظنه جاء الى هنا لهذه

الغاية؟».

قالتها وهي تفيض عذوبة ثم اضافت قائلة:

«واعني، ليدرس تفاعلات الانسان البدائي؟».

اطلق عبارة قاسية قائلاً:

«لا تبالغي باستغزازي يا تامي، الا اذا شئت التعرض مرة ثانية

للعقاب الممحي الذي ننزله، نحن معشر المتوحشين، بزوجاتنا

المنحرفات».

ارتدت الى الوراء وقالت:

«اياك ان تلمسني!».

بخطوة واحدة قطع المسافة التي تفصل بينهما:

«اياك ان تثيري غضيبي. ربما وجدت لذة في ضربي لك بحيث

تطلبين المزيد الآن».

وفي هذه اللحظة ظهر ديرك ومعه الدثار. غير مكترث ظاهرياً

ولكنه يراقب حركات آدم بحذر. وقدم اليها الدثار قائلاً:

«تفضلي يا حلوتي! من المؤسف ان تخلمي السترة عنك. اتوتة

المرأة تبرز بوضوح عندما ترتدي ثياب رجل عليها. ما قولك يا

آدم؟».

«اقول انه حان لنا ان ننصرف».

وارتدى السترة التي اعادتها له تامي، ثم تابط ذراعها مبدئياً

امتلاكه لها وهو يسير بها الى الداخل. لم تتمكن من شكر ديرك ولا التلويح له بيدها مودعة، ولكنها اثناء مرورها به لمحت منه طرفة عين وابتهامة وكأنه يقول لها:

«نبحنا يا شريكتي! التقط الثعلب الرائحة وابتدأت المطاردة».

٩- ليل العذاب الطويل

رفعت تامي رأسها واسترعى انتباهها ارتظام حبات المطر يزجاج التوافذ. وفي الخارج كان يجيم الظلام والرطوبة والجو المكفهر، ولم تكن الجبال سوى اشكال مغموسة المعالم تتعذر رؤيتها من خلال المطر. ركزت اهتمامها على عملها يغمرها شعور بالرضى والألمنتان في غرفتها. ملازمة البيت كانت متعة جديدة عليها. ومع أن همتها الوحيد هو ارضاء آدم فانه لم يخطر لها ان تهتمك هذه الاعمال البسيطة بهذا القدر.

على الطاولة بجانبها كومة من الخربير المطرز، وعلى ركبتيها قطعة قماش رسمت عليها تامي زهوراً وأوراقاً وطيوراً غريبة الاشكال. العمة هونور اوجت اليها بهذه الفكرة. في الصباح التالي لحفلة

العشاء في منزل بام، سألت العمة هونور ما اذا كانت الحفلة ناجحة ام لا.

قالت تامي بلا مبالاة:

«اعتقد ذلك، التقيت رجلاً جذاباً ولم انسجم مع السيدات الحاضرات. كان حديثهن يدور حول معارض يرغبن في الاشتراك بها. وسألني ان كنت انوي الاشتراك في اية مباراة فاشيرتهن اني لا اجيد صنع المخبوزات ولا اعرف شيئاً عن صنع المربيات، وحفظ الفاكهة هو لغز بالنسبة الي، ففأخرن بالتفوق علي مما افقدني صوابي».

فقالت العمة هونور مؤاسية:

«اني ادرك مشاعرك، انهن قاسيات واؤكد انهن شعرن بالارتياح لانك لا تشكلين اي منافسة لهن. انا وفيني نفوز بمعظم الجوائز الاولى في المعرض الاقليمي منذ سنوات عديدة. فيني ماهرة في صنع المربيات والفاكهة المحفوظة، وانا حالفتي حفظ نادر في صنع المخبوزات، ولكن وقتنا هذا العام لا يتسع للجهود المضنية التي يتطلبها تقديم عمل ناجح».

اطلقت زفرة حارة وقالت:

«خسارة، منذ خمسين عاماً وكل ما يتقدم به فوكس هول يكون في الطليعة».

شعرت تامي بالحياء فقالت:

«وليتني استطيع المساعدة يا عمتي هونور، ولكن اياً كانت الجهود التي سأبذلها فانها لن تفوز باكثر من ملعقة خشبية».

«لا بأس يا عزيزتي. بالرغم من كل النجاح الذي احرزته وفيني في ما تقدمنا به لم نحزز حتى الشاء في الرسم واشغال الابرة، مهما بذلنا من جهد».

فاجأتها تامي بالقول:

«وانا ماهرة جداً في هذين الحقلين».

رمتها العمة هونور بنظرة شك:
«أنا واثقة من ذلك ولكن...»
فقال تامي يحذوها الأمل:
«ولكن ماذا؟»

«لا أريد إثباط عزيمتك، ولا أشك بمقدرتك، ولكن لدينا نساء
موهوبات جداً ونوعية اشغالهن رائعة. عمة بام، مثلاً، تفوز بالجائزة
الأولى في قسم التطريز منذ اعوام، بينما بام ذاتها رسامة موهوبة جداً
ويمكانها كسب عيشها من الرسم بسهولة ان شأمت.»
وهزت العمة هونور برأسها وقالت:
«لا يا تامي، صونا لكرامتك لا انصحك بالدخول في مباراة ضد
أي منها.»

اثارت اقوالها غريزة التحدي لدى تامي، كان ذلك اشبه بمن يحلر
سكوتلاندياً من دخول حلبة يسيطر عليها انكليزي.

قالت تامي بحماس:

«أخبريني أين أجد المواد ودعي الباقي لي.»

اطلقت العمة هونور زفرة وقالت حل سبيل المسيرة:

«ستجدين كل ما يلزمك في الغرفة الخشبية العلوية من منصة
لرسم وزيوت وقماش وكل شيء، وسلة اشغالي تغص بالحرائر
للتطريز.»

بلذوق رفيع وقفت تامي بين اللونين الازرق والاخضر، وهما
المفضلان لديها، لتلوين ريش عصفور رسمته على قماش ابيض
داكن. قالت تحدثت نفسها:

«سوف أريهن، سأعوض والدي ولو لمرة واحدة، النفقات
الباهظة التي دفعها لتثقيفي.»

وابتسمت اذ تذكرت كيف كانت تساء من السيدة بيكور معلمتها
الفرنسية في اشغال الابرّة التي خصصت ساعات طويلة من وقتها
لفتاة اعتبرتها موهوبة جداً.

«تجيدين اختيار الالوان يا عزيزي، وتملكين مهارة الاحتراف في
التصميم. داومي على ذلك وستكونين ممننة لهذه المواهب ذات يوم.»
وداومت تامي على ذلك فقط لارضاء ميولها المبدعة، لاخذ قطعة
قماش وتحويلها الى شيء جميل. والرسم ايضاً حقق الغاية ذاتها.
قطعة القماش الخالية كانت تشكل تحدياً لها، وكانت تعتبر كل صورة
تجزئها بمثابة قطعة منها او بمثابة وليد جديد.

مالت برأسها تنفحص عملها وابتسمت راضية عن التصميم
الذي يتطور ببطء واتقان. كان ميلها كبيراً الى الانتاج بحيث
تساءلت كيف تركت وقت فراغها يذهب هدراً. ولكنها منذ مغادرتها
المدرسة لم تجد فترة صمت او وحدة اشعرتها بضرورة قيامها بهذا
النوع من العمل. كانت حياتها حافلة بالتضاهات وبجهود بذلتها على
امور لم تأت بنتيجة.

طوت شغلها واعتبرت ان ما فعلته اليوم يكفي. لا تزال هنالك
ثلاثة شهور لموعد المعرض، ألا انها كانت تمضي كل لحظة فراغ اما في
غرفتها او تجوب الجبال بحثاً عن بقعة تخلدها على القماش، ولكنها لم
تجدّها بعد وقد يحالفها التوفيق اليوم. اطالت برأسها من النافذة الى
اشعة الشمس الضئيلة وقررت الخروج للبحث، فازتردت واقفا
للمطر ووضعت منديلاً على رأسها عقدت طرفيه تحت ذقنها ويخطى
مرحة هبطت الدرج واجتازت القاعة.

مرّ بها آدم في سيارته وهي في منتصف الطريق الى البوابة
الخارجية. لوحّت له بيدها بطريقة عفوية واستأنفت السير غير متوقعة
سماع صوت الفرامل ولا وقع الخطى التي ادركتها قبل بلوغها البوابة
الرئيسية المزودة بتيجان من الحديد المجنول وتعالب ذات اذنان
طويلة ترتفع حتى صف من الحراب الحادة. كانت هذه الحراب قديماً
تردع أي سكوتلاندي يتتبع حرمة اراضي آل فوكس ولكنها اليوم
مشرعة واصبحت شبكة يتسلق عليها العوسج.

كان كل تفكيرها منصّباً على تحقيق غايتها، ولم تشعر بان هناك من

«أحقاً تأخذني يا آدم؟»

لم يفقه بكلمة بل عاد الى السيارة وادار محركها واستدار بها ثم توقف الى جانبيها وقال باقتضاب شديد:

«أصعدي!»

ما كان يجدر بها ان ترتاب بحسن حظها، فهدأت من روعها وصعدت الى جانبيه.

حوّل مقدمة السيارة نحو الشمال وانطلق بها مجتازاً سلسلة من القرى الصغيرة في طرقات ضيقة متعرجة غسلها المطر الذي ابتدأ بالمطول صباحاً واستمر الى ما بعد الظهر. اتخذت الطريق تنجيه صعوداً، ثم استدار عند منعطف حاد حيث اجتاز مياح عوسج متفرق الأوراق فشاهدت تامي في الاسفل البعيد بحيرة تحيط بها جبال ضخمة منحدراتها الحرجية اجمال شكلاً من الصخور الداكنة المحيطة بفوكيس هول. توقعت ان يتجه آدم نحو البحيرة ولكنه انعطف يساراً الى موقف للسيارات خالٍ الا منها.

وفي الصيف هذا المكان يكون اشبه بخلية تحل، مزدحماً بالناس ولكن الطقس المتقلب في هذا الوقت من السنة يقيهم بعيدين».

التفت حولها بحثاً عن المنظر الحلاب الذي وعدا به، واصيبت بخيبة امل. البحيرة ذاتها، بالرغم من جمالها لم تكن خلالية وهي ترتدي حلة رمادية توحى بالكآبة.

قرأ افكارها وقال وهو يترجل من السيارة:

«رويدك، استعدي للمشي!»

اجتاز بوابة صغيرة وسلوكاً درياً تؤدي الى غابة حيث كانت اكواز الشربين تتحطم تحت اقدامها، ثم سلكا طريقاً مظلمة تحف بها اشجار الشربين المتشابكة تتخللها فجوات من الاغصان الخضراء المتباعدة. تلك الاشجار الباسقة الشائخة نحو السماء ذكرت تامي بثلة من الحرس يصطفون بدقة تكاد تكون هندسية. ستجابه احمر ابيض على غصن وبين برائته كوز من الصنوبر، انتفض متنبها وتسلق

يتبعها، وعندما استقرت يد ثقيلة على كتفها وادارتها بسرعة شهقت مندهشة.

«اين تذهين مسرعة؟ هل الى حيث اعتدت الاختفاء في الايام القليلة المنصرمة؟»

عقدت ما بين حاجبيها. تكلم آدم بغضب شديد على غير عادته.

اجابت وفي لهجتها مزيج من الدهشة والتهكم:

«انا ذاهبة في نزهة اذا كان ذلك لا يضيرك».

«قد يضيرني، وذلك يتوقف على الرفيق الذي تختارين».

فردت وهي مقهية الجبين:

«اي رفيق؟»

وقال بصوت اجش:

«غيابك في الاونة الاخيرة كشف امرك. لا تنكري كثرة لقائك

ببتي».

ثمة شعور داخلي نهبها الى وجوب اختيار كلماتها بعناية. يبدو انه افتقد وجودها للزعيج فعليها ان تستغل الطرف الى اقصى حد. اصطبغت وجنتاها بحمرة الانتصار التي تشبه الى حد كبير حمرة الحجل وقالت:

«كنت مشغولة في الايام القليلة المنصرمة، اما اليوم فأنوي التنزه بمفردي. اني افكر برسم لوحة. جميع المعدات اللازمة متوفرة في البيت، ولكنني ابحت عن منظر جميل معين، منظر يجتذب البصر والخيال».

تفرس فيها طويلاً وقال:

«اعرف مكاناً كهذا، وما انه يبعد كثيراً عن الطريق العام علي ان أحلك اليه بنفسي».

كان المفرد قد الصق خصلات من شعره على جبهته وعلقت قطرات منه في شعره الاسود. وبينما كانت تامي ترمقه تدحرجت قطرتان على انفه فتفضها عنه وبدا نافذ الصبر وهو ينتظر اجابتها.

بسرعة جنونية الى الاغصان العليا لدى مرورهما.

وبعد قليل سمعت تلمي زججرة مكتومة فازدادت اقتراباً من آدم، وكانت الزججرة المشؤومة تزداد وضوحاً لدى كل خطوة يقومون بها. اوقفها قليلا و اشار الى حافة الممر الذي ينحدر درجات منحوتة في الصخور. تبعته وهي شديدة الخنز لموطيء قدميها، ثم نظرت بسرعة الى الاعلى حيث انفرجت غمامة رمادية وكأنها ستارة انشقت لتكشف عن شلال من المياه البراقة.

لجمتها الرهبة، فوقفت تستوعب هذا المشهد الأخاذ. كان تدفق المياه يصدر هديرأ وغمامات من الرذاذ تؤلفه اطنان المياه المرتطمة بغضب بالصخور الصوانية. جسر بدائي يمتد فوق المصب الضيق. وعندما جذبها آدم الى الوسط تثبتت بسياج حديدي دقيق ونظرت الى الأسفل، وساورها شعور غريب غرابية تلك المياه المتدفقة. صدر عن الجسر صرير تحت ثقلها ولكن آدم بدا هادئاً فكبت خوفها. تساقط الرذاذ حولها كالضباب متدبياً بشرتها ومضيفاً الى شفيتها المنفرجتين رطوية.

«عندما تشاهدان اكبر الشلالات السكوتلاندية او شلالات جبال الالب فان شلالتنا المتواضعة تشعرك بخيبة».

قال ذلك بصوت مرتفع يطغى على هدير المياه وتابع قائلاً: «مئات الاشخاص يأتون الى هنا صيفاً عندما يكون الشلال مجرد قطرات من الماء، ولكنه في يوم كهذا يشكل الفضل مشهد لقلة ضئيلة من الناس المدركين».

بكل هذا الرذاذ المتناثر حولها لا عجب ألا يتنبها لقطرات المطر الاولى وهي تساقط عليها. وفجأة اخذت السماء الدائكة تفرغ ما فيها على الزوجين الواقفين على الجسر وغير المباليين بهطول الامطار الغزيرة. هطل الطوفان بمرح شيطاني، وما هي الا ثوان حتى بلغ الليل بشرتيهما.

امسك آدم بيد تلمي وراح يجري ولما بلغا الضفة دفع بها الى تحت

شجرة وارفة حيث وقفا يلهثان. بدت وكأنها اجتازت الشلالات وهي في كامل ملابسها التي تبلل كل خيط منها.

وكانت المياه تنحدر من شعرها الى رموشها ومن ثم الى وجتيها. كانت تلهث وتبعد قطرات المطر عن عينيها وعندما نظرت الى عيا آدم القلق انفجرت ضاحكة.

بعد لحظة من الحيرة راح يشاركها الضحك. كان قد أعد نفسه للتأنيب وحتى لسيل من الشتائم ولذلك كان في ضحكة انفراج واعجاب بالفرسة الرقيقة التي نبتت في ارض صلبة غير مالوفة. لف ياقته حول عنقها وقال:

«قليلات من اللواري اعرفهن يدركن متعة البلل حتى البشرة، وهي متعة شبيهة بسرقة حديقة للزهور او بتعطيم الصحن. اتذكرين وانت طفلة كيف كنت تمشين في المستنقع متعلقة حذاءك لانه قيل لك ألا تفعل ذلك؟».

اومات برأسها وعيناها تشعان:

«الثواني الاولى فقطيعة ولكن ما ان يتبلل المراء كلياً حتى يتجاوز مرحلة البؤس ويبدأ بالاستمتاع بالبلل، وبما اننا الآن في هذه المرحلة الرائعة لماذا لا نشق طريقنا الى السيارة تحت الاعصار؟ ذلك لن يزيدنا بللاً».

وكولدين صغيرين امسك احدهما بيد الآخر وركضا في العاصفة. يرشغان قطرات الماء متحدين الطبيعة، ولما واجهت الطبيعة تحديها بامطار اكثر غزارة ازدادا ابتهاجاً.

عندما بلغا السيارة ارمحا في داخلها كتلة من المرح. امسك آدم بمقود السيارة وتردد قليلا ثم استدار الى تلمي وعانقها بحرارة، ونظرت اليه بعينين متسائلتين فقال موضحاً:

«هذا العناق مكافأة لك على روحك الرياضية».

لو انها تلقت وساماً لما كانت اكثر فخراً مما هي الآن.

همست قائلة:

NLO

«شكراً».

ورادتها رغبة شديدة في البكاء.

ادار محرك السيارة بسرعة وانطلقا ينهما الأرض نهياً.

استيقظت تامي في حوالى منتصف الليل ترتجف برداً، وشعرت بالحرارة تلهب جبهتها وبألم حاد في حلقها. قبل ذلك بأربع ساعات، كانت العمتان قد حملتاها الى الطابق العلوي، ووضعتها في حمام ساخن، ونقلتاها منه الى الفراش، ولازماتها الى ان شربت كوباً من الحليب الساخن بعد معارضة شديدة منها. لدى بلوغها فوكس هول عثفت العمة هونور آدم اذ رآته يحمل زوجته المنسخة المبللة ويبتاز بها عتبة الباب. وحتى العمة فيني بعد ان شربت تامي الحليب واتكأت على وسائلها تتمت بوضع عبارات تلوم بها ابن اخيها.

«لا افهم ماذا يدور بخلدك، لا شك انه فقد صوابه».

اجتاحت تامي رعدة قوية فهبت تبحث عن معطفها البيتي الذي يكون عادة على السرير عند قدميها. كانت تشعر بضعف هائل وبألم حاد في حلقها كلياً بلعت لعابها. انزلت وجليها عن السرير ولا حظت أن النار الضئيلة في الموقد غير فعالة في الغرفة الباردة.

سارت متعثرة نحو الباب القاصص بينها وبين آدم. ساءها الشعور بأنها تسبح في الهواء، وازعجتها موجات الضعف الحارة والباردة التي تحتاج جسدتها.

صرخت:

«آدم!».

هالتها الحشجة التي صدرت عنها، كررت المحاولة ولكن صوتها كان اضعف من ان يخترق الباب السميك فراحت تفرعه بقبضة يدها وتتحبب بضعف ثم سقطت ارضاً وقد نفذت طاقتها.

نهض آدم مشعث الشعر، معطفه ملقى بالهمال على كتفيه وفتح الباب وكاد ان يتعثر بالجسد الطريح على العتبة.

«رباه، تامي!».

NLO

سمعت هذه العبارة وهي في شبه غيبوبة قبل ان تمسك بها ذراعان قويان وتضمناها بحرارة الى صدر قوي. التقت بثقلها عليه وهي تهمس، بكلمات الامتان ومالت برأسها على كتفه. حملها الى سريرها بلطف ولما حاول الانسحاب همست معترضة وثبتت بكمة متوسلة بصوت يكاد لا يسمع:

«لا تتركني يا آدم... اشعر ببرد شديد».

«اني مضطر لتركك ريثما استدعي العمتين».

وكان جوابه جاء من مكان بعيد واليأس يسيطر على صوته. خوف اعمى يسيطر على رجل قوي يواجه لأول مرة في حياته عجزاً في تقرير السبيل الافضل الذي يجب ان يسلكه.

وفيا هو متردد اخذت اسنانها تصطلك وهزها ارتعاش فظيع انتهى بانتفاضة عنيفة بينها تشبثت اصابعها بشئنا معطفه.

«ضمني اليك يا آدم... ضمني!».

ضمها الى صدره وكانها طفلة صغيرة راح يدهدها بين ذراعيه ويصمخ اليها بعبارات المؤاماة. وكانت لا تزال بين ذراعيه عندما انحنى قليلاً الى الامام الى ان استقر ظهرها على الوسائد وراح يلفها بالاعطية بغية جعلها في غلاف محكم، ولكنها قاومت عندما حاول الابتعاد وأبت ان تترك معطفه.

بحنان كبير أزاح خصلة شعر عن حاجبها الرطب وقال:

«افهميني يا تامي، لا استطيع ملازمتك، سأستدعي العمتين للسهر عليك».

«كلا، اريدك انت».

تأثر كثيراً عندما انطلقت الكلمات الحزينة بألم من حلقها، ثم راحت تداعب شعره باصابعها المضطربة.

وبصوت اجش كصوتها توصل اليها قائلاً:

«انا لست من حديد يا تامي».

ولكن شدة مرضها شلّت تفكيرها. يكفيها انها قريبة جداً منه،

١٠- انت مصدر ازعاجي

جاء ديرك لزيارة تامي حالما ارتأت العمتان ان حالتها الصحية تسمح بذلك. لم يكن هو اول زائريها، كانت بام قد جاءت في اليوم السابق لتلقي على منافستها نظرات تقيض شفقة. شفاؤها استغرق اكثر من اسبوع وامضت اسبوعاً آخر في طور النقاهة، وكانت آثار المرض تتمثل بالضعف الذي تعرب عنه دموع تندرج من عيني كيثيتين وينوبات ارتعاش توهم جسدها، وبالعرق المتجمع فوق حاجبيها. كانت هذه الاعراض اكثر ما تصيبها كلما رأت آدم. كان يقطب جبينه لشعوره بان وجوده يزعجها فيغادرها بعد سؤل سريع عن صحتها وعيناه الحائرتان تنساء لان عن سبب تردها في الانفراد به.

مطمئنة بين ذراعيه. انها تتوي الاحتفاظ بما احرزت بعد نضال مرير ولا تريد العيش بدونه. قربه منها يبقها الرعشات التي تنشر البرد في كيانها بين حين وآخر.

نجحت وهي ضعيفة حيث فشلت وهي قوية. استسلم للأمر الواقع وضم جسدها وراح يدهدها لتنام وهو يمس في أذنها بعبارات عاطفية رقيقة من دون ان يكشف شيئاً من اللهب الازرق المنبعث من عيني كانت تبحث فيها عن الاطمئنان في ليل عذابها الطويل. وكانت تسعى الى الدفء وهي بجانبه فعانقته بحرارة وراحت تصب في اذنيه عبارات عاطفية غير مترابطة بينما تركزت عينها على لوحة في اطار معلق على الجدار المواجه لسريرها وكانت اللوحة تحمل العبارات التالية:
«خلق الله الرجل ووجد ان وحدته غير كافية فأعطاه رفيقة لتزيد شعوره بالوحدة».

شاهت ان توضح له نويات الحياء التي كانت سبباً لهذا الجفاء . لم تذكر بداية مرضها، كل ما تذكره هو انه كان معها وانها اخرجته، وعندما حاولت الاستفسار منه عن ذلك اسكتها، ولكن حمرة الخجل التي تولته اكدت لها صحة ظننا، ومنذ ذلك الحين والارتباك رفيق جلساتها.

اي حدث مؤلم يترزنه عقلها الباطني يسبب لها هذا الارتعاد كلما فصلت بينها مسافة صغيرة؟ لماذا تنكمش حياء مشيخة بصورها عن العينين الزرقاوين اللتين تتغلغلان في أعماق روحها؟
تامى ماكسويل خجولة! كم ستضحك رفيقاتها اذا علمن بذلك!
كم تثور ميغ سلفتها النشيطة من حيائها المشين اثناء وجود فوكس الأفاق.

عجيء ديرك كان نجدة لها . دخل وكله ثقة بالنفس، فارتفعت معنوياتها فوراً وقال باسماً:
«الحلوى للحلوى»
والقى اليها بكيس من السكاكر.
«صعقت صاحبة المتجر عندما طلبت فاكهة مجمدة».

وراح يقلدها:
«هذه الفاكهة وعلب الحلوى لا يطلبها الناس إلا في المناسبات الخاصة كمناسبة عيد الميلاد».
كان انفجار تامى بالضحك اشبه بانفجار سد مائي، يضع قطرات تتدرج على الحصى وتدرجياً تزداد تدفقاً الى ان تصبح سيلاً جارفاً، ولم تستطع السيطرة على نفسها وهو يدور في الغرفة مقلداً العانس ذات الملابس الضيقة التي تدير المتجر في القرية.

قالت وهي تشهق:
«كف عن ذلك، ارجوك».
وراحت تشد خصرتها بيدها:
«انك ماهر في التقليد ولكن كفى، سأنفجر من الضحك».

عاد الى رزائته وتقدم نحوها واستند يديه على جانبي مقعدها وانحنى ليتفحص وجهها الشاحب.
وممس قائلًا:

«عينان رزيتان . لدى دخولي خيل اليّ انك نسيت الضحك . يلزمك حفلة مرح تزيل الغم من هاتين العينين الواسعتين . تستطيعين الذهاب الى حفلة رقص ومرح؟».

اطلقت زفرة وقالت:
«اجل، ولكنني قد لا اقدر على تحمل مشاق السفر».
«السفر؟».

وكاد ان يفقدها اعصابها بنظراته التي تفيض توبيخاً . وعندما استطاعت السيطرة على نفسها قالت:
«الى لندن، اليس هي التي ستفقد؟».

«انهم احياناً يقيمون الحفلات هنا في هذه الغابات . وعلمت انهم يستعدون لاقامة حفلة . هذه الحفلات تقام عادة في الحريف قبل ان تبدأ مشاق الشتاء، ولكن لسبب اجهله قرر بعض الشبان اقامة حفلة هذا الاسبوع قبل الانهماك كلياً بالعناية بالخراف».

فكانت بفرح ظاهر:
«هذا تمتع . ما هي حفلة المرح بالضبط؟».
«انه اجتماع للاصدقاء والجيران لاحراز اكبر قدر ممكن من الفرح لفترة محدودة، وهذا الاجتماع يقام ليلة واحدة فقط، ولكنني سمعت ان ثمة اجتماعات تدوم اسبوعاً . كل ما يلزمنا هو وسيلة للانتقال الى مكان الاجتماع، ملابس عادية وقدره على السهر والرقص وقد يطلبون اليك ان تغني . ما قولك، اترغبين في ذلك؟».

«اجل، بكل تأكيد».

بحركة سريعة لمس انفها بطرف اصبعه:
«كوني مستعدة غدا مساءً، سأجيء لأخذك في الثامنة».
عندما انصرف ديرك اخذت ترتب افكارها، وبعد تفكير عميق

قررت ابقاء الامر سراً. ستقيم العمتان الدنيا وتعدانها بينما آدم لا يبالي بمخططاتها. ولكنها لم تستطع مقاومة رغبتها في السؤال فيما كانت تتناول الشاي مع العمة هونور:

«هل حضرت حفلة مرح؟ سمعت ان هذه الحفلات مسلية جداً».

وبكل تأكيد حضرتها».

ضحكت العمة هونور ووضعت فنجانها واتكأت في مقعدها بطريقة اوحى لتامي انها تمهيد لسرد الذكريات:

«عندما كنت شابة كانت هذه الحفلات تدوم من نهار الجمعة حتى ليل الاربعاء من دون انقطاع، وكانت كل حفلة تبدأ بصيد الثعالب، يجتمع الصيادون في صباح يغلفه الضباب يرتدون معاطف زهرية اللون وعند اقدامهم يربض قطيع من كلاب الصيد المتحمسة، والاشجار تكسوها الوان الخريف. وغالباً ما تكون هنالك لسعة من البرد تبقينا في حركة دائمة، وطبقة من الثلج تغطي قمم الجبال الشاهقة. كان البعض يتبع الصيادين على الاقدام وينظر الى الجبال بالمناظير المكبرة، وفي نهاية النهار تزار نار ضخمة في مدفاة النزول حيث تبدأ الاحتفالات فور عودة الصيادين. اما العمل الحقيقي للتجمع فكان يجري طوال النهار في الجهة الخلفية للنزل».

«وما هو العمل الحقيقي للتجمع؟».

«انه اعادة الخراف الضالة التي شردت في الجبال خلال العام وتسليمها الى اصحابها رسمياً، هذه هي الغاية من التجمع، المزارعون من المناطق المجاورة يجمعون خرافهم الضالة ويضعونها في زرائب خلف النزول حيث يتولى راع مسن طوال النهار تصنيفها. معظم الرعاة المسنين قادرين على تمييز الحروف بأسرع مما يميزون انساناً».

«واتعنين انهم فعلاً قادرين على تمييز خروف عن آخر؟ ولكن كيف؟».

«بواسطة العلامات التي تحملها الخراف. لكل مزرعة علامتها المميزة. يقولون ان هذا العمل يتوارثه الابناء عن الاباء منذ عهد الفايكينغ الذين غزوا هذه الجبال واستقروا عليها لان موقعها ذكرهم ببلادهم، اذا كانت اذن الحروف مقروضة يقطعون طرفها كلياً، اما اذا كانت الاذن مشطورة فتكون ممزوقة حتى منتصفها، واذا كانت مقروضة فيكون القرض بشكل رقم سبعة، واذا كانت مقروضة مفتاحياً فيكون القرض بشكل مربع، وبما انه لكل اذن طرف علوي وآخر سفلي ولكل خروف اذنان اثنتان فيمكن جعل العلامتين متطابقتين، كما ان هنالك الحروق في القرون او علامات مميزة في مختلف انحاء جسم الحروف. ولكن الرعاة المسنين لا يحتاجون الى رؤية العلامات بل يكفي ان يلقي احدهم نظرة واحدة ليقول:

«هذا الحروف لطوم لوثر او هو خاصة يون غلنديبنغ».

تولى تامي حماس كبير فنسبت حذرها وقالت:

«كم هذا فائن، المحرق شوقاً لرؤية ذلك».

«لا بد لك من الانتظار، حفلات المرح لا تقام الا في الخريف. كثرة العمل في هذا الوقت من السنة لا تسمح للناس باتشاء عشرين بيتاً من الشعر في الساعة الثالثة صباحاً».

فقال تامي متلثمة:

«والا يمكن ان تكوني مخطئة؟ سمعت انهم ينوون اقامة حفلة مرح هذا الاسبوع».

ضمت العجوز شفيتها وقالت:

«ويتنى البعض ان يكون عيد الميلاد كل شهر، وان تقام حفلة مرح كل اسبوع. كلا، انت مخطئة ولا شك. المعروف عن بعض الشبان انهم يقيمون حفلة مرح خاصة بهم وهي لا تقارن بالحفلات الحقيقية».

غيرت تامي الموضوع قبل ان تساور العجوز الريبة، ولكنها بقيت

NLO

عرضة للقلق طوال النهار، ولو امكنتها ان تبعث لديك برسالة تخبره فيها انها غيرت رأيا لفعلت.

صعدت الى غرفتها محدوها رغبة في اكمال اشغال الابرة التي اتملتها في الاسبوعين المنصرمين. وكانت قد استقرت في مقعدها بقرب النافذة عندما دخل آدم بعد ان قرع الباب بحياء.

بدا وكأنه في مهيب الريح، شعره الاسود مبعثر، نظرتة جامدة كالجليد الذي يغطي قمم الجبال حيث امضى نهاره. كانت ملاسمة عادية، سترة سمينة من الصوف وسروال لركوب الخيل وقد عقد وشاحاً حريراً تحت ياقة قميصه المفتوحة. قامت المتصبية ورأسه الشامخ وملاصحه العبوسة ابرزت اعتزازه بسلالته.

قالت في نفسها:

«جاء البارون فوكس يتفقد مصدر ازعاجه».

وتشبثت بفيظها لتقاوم موجة الضعف العذبة التي اعترتها. وكادت ان تمنعها من التنفس. دست قطعة التطريز وراء الوسادة ونهضت من دون ان تتأثر بظهوره المفاجي».

«هل تريد شيئاً؟»

ارتفع حاجباه دهشة واستقرت نظرتة على وجنتيها المتوهجتين اولاً، ثم على الوسادة التي جعلتها نجماً وقد ضاقت عيناه رية.

«هل اخترت وقتاً غير مناسب للزيارة؟»

كان الرد الناعم مشحوناً بالاسئلة فتابع قائلاً:

«لم هذا الاحمرار؟ لم هذه الوقفة الدفاعية؟ ما الذي تخفيه الوسادة؟»

اتجه نحوها وقرأت تامي افكاره وتقدمت تسد عليه الطريق مصممة على ابقاء امر القماش الذي طرزته باحلامها سراً حتى يجين الوقت المناسب لمفاجاته واتباعه بما يشبه مهارتها غير المتوقعة.

ضحكت بعصبية وقالت:

«جميل منك ان تمنحني شيئاً من وقتك خاصة ان موسم العمل

بداهك. اترغب في فتجان من الشاي؟ منذ قليل شربت والعمة هونور ابريقاً منه ولكن بامكاني ان اعد لك فتجاناً».

فرد بعوس:

«كلا، شكراً».

ثم فاجأها بالسؤال:

«هل جاء بيتي الى هنا؟»

فاجابت متلعثمة:

«أجل، زارني ليرفع من معنوياتي وحمل اليّ هدية صغيرة».

واحبس الكلام في حلقها عندما اتجهت نظراته نحو الوسادة.

زاودتها رغبة في الضحك. خيل اليه انها خبات هدية ديرك لتفاخر بها فيما بعد على انفراد. ولم تحاول اطلاقه على الحقيقة.

وكتلميعة ساذجة سألت متلعثمة:

«هل من سبب معين لزيارتك؟»

رمقها آدم طويلاً وقال:

«اتيت لزيارتك لانك زوجتي وكنت مريضة وكانت حماقتي هي السبب في مرضك. اندهشك رغبتني في الاستفسار عن صحتك يوماً؟ كل زوج يعرف واجباته يفعل ذلك».

«يعرف واجباته؟» وهمست في نفسها بمرارة، انه لكذلك فعلاً، لولا تعلقه بالواجب وادراكه لالتزاماته لما كانت هي الآن البارونة فوكس.

قالت بصوت خاد:

«انا بخير، لا تدع حالتي الصحية تعرقل اعمالك بعد اليوم».

واشارت بعينيها نحو الباب، ولكن آدم اذهلها بتجاهل اشارتها وجلس على مقعد قريب.

اطبقت اصابعه الفولاذية على معصمها وشدها اليه قائلاً:

«تعال، دعيني انظر اليك».

واظهر سيطرة اذهلتها وجعلتها تمحو بجانبه وجذبها الى الامام
وانحنى برأسه الى ان التقت عيونهما. كانت في ما يشبه الغيبوبة عندما
شعرت بأبهامه يلامس وجنتها فارتعدت عندما خاطبها بصوت
بفيض حناناً.

«انت رائعة الجمال وقد خلقك الله للحب».

اقترب رأسه منها، ولفحت أنفاسه الحارة وجنتها، عل شفيتها
طيف ابتسامة وفجأة طرأ تحول غريب عل مشاعرها جعلها تمسك عل
قدميها وتحول الحنين الجارف الذي يجتاحها الى احساس اقوى من
الرغبة في الاستسلام صاغرة بين ذراعي الرجل اللفظ الذي ورث
شخصيته عن اسلاف كتبوا اسماهم بالسيف دوغما رادع يردعهم.
كانوا ذوي امزجة متقلبة كمزاج آدم الآن، انه عطش ولا ترويه سوى
امرأة. عرفا الحب والحنين في اقصى درجاتها ولكن نامي اكتشفت
انها لا تريده بغطرسته بل بعبه الخالي من كل شائبة وانها تفضل البقاء
من دونه عل نيل جزء منه فقط.

سيطرت عل نفسها وحسبت دموعها وقالت:

«هل لك ان تنصرف الآن؟».

نفض عل قدميه بطوله الفارغ. عدم ظهور الندم عليه اثبت
حكمة تصرفاتها.

«ما دامت هذه مشيتك».

قالها ببرود ومار نحو النافذة ومرح ببصره عل القمة المنتصبة
كحارس فوق منزله.

وافصح عن افكاره بوضوح عندما سألتها ببرود:

«انتوقعين ان يكرر بيتي زيارته؟».

اطلقت نامي زفرة حارة مرتعدة وهي تدرك مدى خطورة
لعبتها.

وكذبت قائلة:

«كلا، لم نتخذ ترتيبات حاسمة».

NLO

استدار اليها آدم وعمل شفثيه ابتسامة تفيض سخوية وقال:
«عظيم».

انجبه اليها ثم قال:

«اوكد انك تعبدن فيه رفيقاً مسلياً فانتما من بيئة واحدة، ولتحملان
القيم ذاتها».

واظنك تدركن ان لنا منصباً علينا المحافظة عليه في هذا
المتجمع. انت وانا، اللورد والليدي فوكس، من فوكس هول وهو
منصب مرموق تربطه التزامات معينة، وبما انك تحمين الاقوال
السامية فاني سأغادرك بعد ان اترك لك قولاً ماثوراً تمنعين التفكير
فيه:

«من يتل الكثير يطلب منه الكثير».

بقيت نامي محدقة لفترة طويلة بالباب الذي اغلقه وراءه. لا شك
ان كلماته المعسولة كانت تنطوي عل التهديد.

«اما ان تتصاعى والا...».

مرة اخرى فرض يارون المستنقعات القانون عل فتاة نائرة من آل
ماكسويل.

ثمة باعث دفعها الى الغرفة الخشبية حيث كانت منذ بضعة ايام
تبحث عن ادوات للرسم، فعثرت عل لوحة زيتية يعملوها الغيار
ووجهها الى الحائط وكأنها وضعت هكذا عقاباً. ثمة ما اثار اهتمامها
في الوجه المرسوم عل القماش وعندما رفعتها الى النور ادركت ما
هو.

نظرت الى الصورة وكأنها تنظر الى نفسها.

كان شعر ميغ ماكسويل كشعرها هي، الا انه يفوقه طولاً وعلى
شفثيها ابتسامة لامرأة لم تعرف الندم، ولم يكن في العينين المرحتين
ظلل للجفاء او العار.

اطلقت نامي زفرة يأس وقالت تطلب الارشاد: «ماذا تفعلين يا
ميغ لو كنت مكاني؟ هل تتحدين مولاك وسيدك لاستشارة اهتمامه،

١١- شجرة الاعدام

في الثامنة الآ ربعا من المساء التالي تسلمت تامي من الباب الخلفي
لفوكس هول وسلكت طريقها بحذر في ظلال الاشجار المصطفة على
جانب الطريق نحو البوابة الرئيسية.

لا شك ان فتيات الامس كن يتصرفن هكذا، متحدثات غضب
عائلتهن للقاء حبيب ممنوع. هذا ما خطر لها وهي تفكر بالجبن الذي
اعتراها بالرغم من عنادها وتصرفها الجنوني الطائش. كانت العمتان
قد أوتا الى غرفة الجلوس، وكان آدم مشغولاً في مكتبه بانجاز بعض
الاعمال الكتابية التي هي آفة بالنسبة لحياة المزارع. استأذنت تامي
متذرة بالصداق وصعدت الى غرفتها، وما ان دخلتها حتى راحت
تستبدل ملابسها فارتدت قميصاً صوفياً احمر وينطلوناً اسود، كان

ام تكونين وديعة مطيعة؟

لم تتغير ملامح اللوحة ولا صدر جواب عن الشفتين الجامدتين،
الا ان ضحكة ساخرة رنت في مسامع تامي عندما انطلقت نفخة ريح
من المدخل المفتوح وتلاعبت ببعض الاوراق في طريقها، خيل الى
تامي انها تسمع نغماً موسيقياً، ترديدا خافتا لاغنية شعبية قديمة تنغني
بها العمة هونور دائماً:

عندما يريد الجمال سجافاً.

وعندما يبدأ القتال والغزو

نحن، ابناء الحدود

لا نزال لنا قلوب الغزاة.

ديرك قد اكد لها انها مناسبة للسهرة . ولكن الشجاعة خانتها لدى التفكير بالامثلة والاعتراضات التي ستج عن مجيء ديرك الى البيت ، ولهذا لجأت الى التسلل من الباب المؤدي الى الدرج الخلفي .

برزت انوار السيارة من الظلام لحظة وصولها هي الى الطريق الرئيسية ، فراحت تلوح بيديها بانفعال شديد لتلفت انتباه ديرك . صرير الفرامل مزق اعصابها المتوترة فالقت نظرة وجل حولها ثم اسرعت وفتحت باب السيارة وانسلت الى داخلها .

انفجر قائلاً :
«ماذا تعنين بظهورك المفاجيء على هذا النحو؟ لو لم ابطيء للدخول في الممر الضيق لصدمتك بالسيارة» .
ولكن غضبه تحول الى قلق عندما رأى الخوف على عيائها فقال :
«اني آسف ، انت ايضا تولاك الفزع . لماذا وقفت في وسط الطريق؟ ألم تستطعي انتظاري في البيت؟» .
صفتت الباب بعنف وقد اعترها الحجل وهي توهمه ان الشوق دفعها الى هذا التصرف .

قالت كاذبة وهي تلهث :
«اني مستعدة منذ فترة طويلة فشئت ان امشي الى هنا لمقابلتك توفيراً للوقت» .

شعرت بالارتياح عندما ابتم وادار عمرك السيارة .
«كم متلهفة انت ، هذا لا يدهشني وانت ربيبة لندن فان هذه الحياة الجبلية تفزعك . ان هؤلاء الناس ذوي الاكتفاء الذاتي يكرهون المجتمع؟ هل هم وحوش ام هم فوق مستوى البشر؟» .
ولشدة دهشتها استكرت تامي هذا الانتقاد اللاذع :
«انهم بعكسنا غير انانيين ، لا يعتزرون ولا يتلذعون بالاعذار لاختيار رفاقهم» .

رمقها بنظرة حائرة وقال بلهجة جافة :

«قد يكون لذلك علامة باختيارهم العيش في عزلة وسن القوانين الخاصة بهم» .

NLO

فاجابت تدافع عنهم :

«انهم من سلالة الغزاة» .

وقال باستياء :

«مثلنا . لا تحذي حذو العديد من مواطنينا السكوتلانديين فينشأ لديك مركب نفص حيال جيراننا الاقطاعيين الانكليز . نحن ، معشر السكوتلانديين ، مرموقون ولولا ارتباطنا بانكلترا لعشنا كأمة لها ثقافتها الخاصة وقوانينها ومعاهدها . لعصور طويلة قاومنا ابتلاع الانكليز لنا . تذكرني ذلك يا تامي كلما شعرت بخطر طغيان غطرسة آدم على معنوياتك» .

كان ذلك كافياً لانتشالها من هوة اليأس التي غاصت فيها ، فشمخت برأسها ووان في عينيها بريق غريب عندما قالت بحدة :
«ما كان آدم ليوافق على خروجي معك ، ومع ذلك فقد خرجت» .

انطلقا بالسيارة ما يقارب الساعة صاعدين تدريجياً في البداية ، ثم اخذ المحرك يعمل جامداً وهما يصعدان ببطء . كانت اشعة القمر الذهبية تمتد عبر القمم وتطل من بين الصخور فتصبغ المياه الوراقاة المتدفقة في اقنية شقتها في الصخور الصوانية وتتساب تحت الجسور وتختفي ، ثم تظهر ثانية مترقصة في اتحداها الى البحيرة البعيدة في الأسفل .

وقبها كانت السيارة تطلق أناتها الاخيرة في الصعود اتبسطت الطريق امام مبنى منخفض لنزل قديم ، الانوار تتدفق من نوافذه . ترجلت تامي من السيارة وانجهت نحو مدخل النزل مسترشدة بالضجيج ويخيط من النور ، بينما داعبت انفها رائحة الزهور البرية . كان النزل يزدهم بشبان صاخبين يطلقون الضحكات عالياً ، وبينما كان ديرك يشق طريقه نحو المقصف ، ثعثر شاب يجعل صينية

عليها اكواب المرطبات فيما كان يمر بالقرب من تامي فثبتت يكتفها فجعلها ترتطم بالجدار، واطلق ضحكة واستأنف طريقه متعثراً من دون ان يعتذر لها، فعضت على شفتها واقرت بحكمة العمة هونور. لم تكن معتادة على معايشة هذا النوع من الناس، مزيج للهجات متعددة لم تكن لأهالي الجبال. كان معظم الشبان يرتدون ملابس المشي، قمصاناً صوفية سمكة تحت مترات زاهية الالوان وسراويل سهلة الاستعمال حشرت اطراف ارجلها في جوارب صوفية برزت من احذية جلدية عالية ذات ازرار معدنية لماعة. كانت حقائب الصيادين مكدسة على جدران بيضاء وعليها صور قديمة للصيادين وبجانبيها أبواق نحاسية طويلة وجلود حيوانات قديمة مختلفة. اباريق من الصفح تتدلى من السقف ينعكس عليها اللهب المتصاعد من كومة حطب ضخمة في وسط مدفأة مجوفة تحلقت حولها مجموعات من الفتيات والشبان جلسوا متربعين على الارض.

وفيما كان دبرك يقترب حاملاً كوين من المرطبات راحت احدى الفتيات تداعب أوتار قيثارة. نجهم دبرك وهو يعطيها كوباً وقال: «أنا أسف يا تامي، يقول صاحب التزل ان هذا المهرجان تقيمه مجموعة من الطلاب الراغبين في تبديد اموالهم ولا يمكن تشبيهه بحفلات المرح الاصيلية. عندما عارضت احد منظمي المهرجان بلغت به الفحة حد القول:

«ما بك يا صديقي؟ الحفلة على هذا النحو افضل من حفلات الصياد».

وبدا عليه غم شديد جعل تامي تنفجر ضاحكة فشاركها الضحك وهو حائر.

«انت من حجر يا تامي، لم تنفوهي بكلمة لوم. ما رأيك، هل تشاركهم الحفلة بعد ان اصبحنا هنا؟».

انفتحت الى الطلاب المتراحمين. منذ فترة كانت في احدى حفلاتهم مصممة على الاستمتاع بكل ما تأتي به الحياة. كانت الفتيات

صريجات بشوشات وقلة ضئيلة من الشباب كانت تسعى وراء الافراط في المرح.

اومات برأسها موافقة بعد ان سمعت صوت المغنية يرتفع ناشراً البهجة وقالت:

«اجل، لم لا؟ يمكننا البقاء ساعة على الأقل».

ولكن الساعة امتدت الى ساعتين ثم الى ثلاث الى ان اندمجا في الجو المرح المزدهم والرفقة الطيبة والجو الدافئ المريح. جاء منتصف الليل ورحل ولم يدريا به. افسحوا لها مكاناً بقرب المدفأة حيث الازدحام جعل تحركها مستحيلاً. في البداية ازعجتها الحرارة الزائدة المنبعثة من المدفأة ولكن عندما اخذت النار تحبو سيطر على تامي نغاس لذيذ وتدرجياً اخذ رأسها يكيو، ولما قدم لها دبرك كتفه دنت منه ويكل سرور استعملته كوسادة.

استفاقت على صوت قيثارة غير متنامق. اصلحت جلستها وفركت عينها ورأت الطلاب حولها وقد انهكهم التعب. قليلون كانوا نائمين حيث يجلسون وآخرون كانوا متعاطفين يتمايلون على انغام القيثارة الوحيدة. وفي احدى الزوايا كانت مجموعة منهم منهمكة في الحديث بصوت منخفض لكي لا يفسدوا متعة الآخرين. كان المقصف قد اقبل منذ فترة طويلة. وفيما كانت تهم بالتهوض رمت دبرك بنظرة عتاب.

ولماذا لم توقظني؟ كان يجب ان ننصرف منذ ساعات!.

هز كتفيه وقال:

«رأيتك مطمئنة راضية لأول مرة منذ اسابيع فلم اشأ ازعاجك». نظرت الى ساعتها وامتع وجوها.

وتجاوزت الساعة الثانية. سيتولى القلق العمتين اذا اقتدنا. يجب ان اتصل بهما هاتفاً.

اصلح جلسته وقال:

«أسف يا حبيبتي، لا هاتف هنا، يجب ان تنتظري الى ان نصل

الوادي. في القرية كشك للمهاطف.
وبتيرة مستعجلة يغلفها الخوف قالت:
«هلم بنا اذن».

سهرة مفتعلة في الخارج، تصرف جريء جداً، ولم تستطع تصور
ردة الفعل لدى آدم اذا اكتشفها تتسلل الى فوكس هول في ساعات
الفجر الباكر.

خرجوا فوجدا ان الارض بللها المطر، والجليد يلمع على كل
غصن وورقة شجر، والصخور الصوانية بدت وكأنها مرصعة بخيوط
من القضة تحت اشعة القمر. كان الجليد يتحطم تحت اقدامهما وهما
يتجهان نحو السيارة. اطلق ديرك بضغ عبارات وراح يفرك بشدة
زجاج السيارة المكسو بالجليد.

«لا تقفي هناك فتجمدي يا تامي، اصعدني الى السيارة واديري
المحرك».

وقذف اليها بالمفاتيح فتلقفتها بأصابع شبه متجمدة. ادخلت
المفتاح وحاولت ان تدوير المحرك ولكن عبثاً. وشعرت ببرد شديد في
الداخل وكررت محاولة ادارة المحرك مرة تلو الاخرى وراحت تبتهل
الى الله الا تتحقق مخاوفها وعندها ظهر وجه ديرك عند النافذة.

كان يادي العبوس وقال:

«لا جدوى، البطارية فارغة».

هزت رأسها وبن التوسلي في عينها وقالت:

«هذا غير ممكن. يجب ألا يكون الامر كذلك».

ولكن الامر كان كذلك.

لم يستطع صاحب التزل مساعدتها:

«ثمة دورية مقرها على قمة تلك الهضبة، ولكنها لا تأتي إلا في
الصباح. آسف، لا استطع ان اقدم لكها مكاناً للمبيت، كما تريان،
التزل يخصص بالطلاب ومعظمهم ينامون على الارض. يمكنكما
الانضمام اليهم ان شئتما، هذا اذا توفر لكما المكان».

NLO

قالها والأسى يغلب على صوته.
وفي هذه الاثناء اخذت اسنان تامي تصطك، وثمة خوف رهيب
جعلها تتلعثم وهي تتوسل ديرك.
«يجب ان اعود الليلة الى فوكس هول. ما فعلته يكفي لاثارة
غضب آدم!».

وحاول طمأنتها:

«ليس آدم بعيداً عن التعقل بهذا القدر. الالهائي معتادون على
رؤية الغريباء ينجحون الى الجبال، لا بد ان يفهم».

وشاءت ان تصرخ:

«انت الذي لا يفهم».

هذا الوضع كفيل بايقاظ المارد وهي التي ستعاني من ثورته.
قاومت موجة من الهستيريا وغادرت السيارة بعد ان اتفقت قراراً
سريعاً.

«سأمشي ولا بد ان اجد في الطريق من يوصلني في سيارته».
انطلقت بخطى حازمة ولكن قبضة ديرك الغاضب امسكت
بكتفها واولقته.
قال بخدعة:

«لا تكوني مجنونة، فوكس هول بعيد ووسائل النقل هنا نادرة كنور
الشمس في هذه الساعة. ستعودين الى التزل معي».

«لن اعود».

وراحت تقاومه، امام اصرارها لم يجد ديرك بداً من اللجوء الى
القوة ليمنعها من الذهاب، فامسك بها بخشونة مسعراً ذراعها الى
جانبها، وشل حركتها بجسده، ولما وجدت تامي نفسها عاجزة
صرخت غاضبة:

«اتركني!».

«لن اتركك قبل ان تعديني بالتعقل».

واذن رأسه منها ليتفاهم معها:

«اصغى يا تامي...»

انوار احدى السيارات غمرت المظبة واستدارت الى الموقف بعد ان سلطت انوارها على شخصين ظهرا وكأنيما في حالة عناق.
هتفت تامي:

«سيارة»

وافلتت من قبضة ديرك واندفعت نحو السيارة التي قامت بدورة واسعة قبل ان تتوقف على مقربة منها.
لاحظت تامي انها سيارة عادية، وكانت شفتاها على وشك ان تنوسل السائق، ولكن الكلمات تجمدت على شفتيها عندما ترجل من السيارة قوام مألوف لديها وهمست:

«آدم»

وجعل الملع صوتها غريباً والشعور بالذنب كان غصة في حلقها.
«اجل، آدم»

شبك ذراعيه على صدره وحقق بها وتسمرت عيناه الغاضبتان على عيناها الخائفت:

«آسف لافساد جوكيما العاطفي»

وتحولت نظراته الباردة الى ديرك الذي كان يتقدم نحوها ثم عادت الى عيناها.

«قلقت العمتان لدى افتقارك ثم تذكرت العمة هونور حديثاً ارشدني الى مكان وجودك. تصرفك الارعن سبب لما حزناً كبيراً وهذا ما ارغمني على المجيء لاعلك»

صوته المنفعل وغضبه المكبوت دلاً على انه يمتنى لو يلقي بها معاً عن الجبل. المارد النائم استيقظ فعلاً. اتون من الغضب الداخلي مغلف بطبقة ثلجية رقيقة كان يتلذذ بالانفجار في اية لحظة، وادركت تامي ان سيلاً من العبارات الحادة سينصب عليها وهو يحملها الى السيارة، والعبارات القليلة التي تقوى بها كانت هي الفطرات التي تسبق العاصفة.

هذا التفكير حذرهما فانتطوت على نفسها لا تأتي حراكاً. كانت تود ان توضح فكرة ديرك ولكنها لم تجرؤ على التفوه بكلمة. سيطرة آدم على نفسه كانت غيضة اكثر من اظهاره لغضبه، وشعرت بالحسد عندما مرت السيارة بديرك خلفه اياه جامداً على الجبل البارد.

لم يتح لها مجالاً للكلام اثناء الرحلة الى البيت. شعرت وكأن الحذر يمنعها عن الكلام والتفكير والاحساس. انقضت ساعة وكأنها دهر حتى استدار بالسيارة الى الممر المؤدي الى فوكس هول وتوقف خارجة. انفتح الباب وبرزت العمة هونور، النور المتدفق من الرواق اظهر تقاطيع وجهها المرتجف.

اندفعت نحو تامي وامسكت بذراعيها وقالت:

«يا عزيزتي، تولانا القلق بالرغم من ثقتنا من ان آدم سيبحث عليك. لماذا لم نخبرينا بنيتك في الخروج؟ من الحكمة دائماً ان تترك رسالة لنعرف مكان وجودك تحسباً للحوادث، الاخطار كثيرة في الجبال»

وراحت تترنر بعبارة غير مترابطة:

«وخاصة في هذا الوقت من السنة عندما يتعمدون نصب الفخاخ للغرباء المتهورين. لا شك انك تجمدت من البرد. ادخلي، فيني تعد لك شراباً ساخناً وتضع زجاجة من الماء الساخن في فراشك»
لم يساور تامي اي حياء فتركت العمة هونور تقودها الى الداخل، ولكن عندما اتجهت بها نحو الدرج امسك آدم بزمام الامر.

«اذهبي الى الفراش يا عمتي هونور، ساهتم انا بتامي... اعطني هذه»

واخذ صينية عليها ابريق من الكاكاو الساخن من يد العمة فيني التي لجمتها الدهشة واثار عليها بالحقاق باختها وقال مخاطباً تامي ببرود:

«تعالي معي، يمكنك ان تشربي هذا في مكتبي»

تبادلت العمتان نظرات القلق ثم اسرعتا بتنفيذ ما طلب اليهما،

وبعد ان التقت العمة هونور نظرة عطف اسرعت الى الطابق العلوي. شعرت تلمي بانها مهجورة منبوذة غيبة للرعب من الحارس العابس الذي ينتظر دخولها امامه الى المكتب. التقت تلمي نظرة حنين بانجاء العمتين قبل ان تسير متثاقلة بالاتجاه الذي اشار اليه آدم. اراحت جسمها المرتجف على مقعد قريب من المدفأة، ومدت اصابعها المتجمدة نحو جذوة الحطب المتبقية في الموقد. استرعى نظراتها الثائثة الشعار المحفور على رف الموقد:

«سيزغ نور القمر ثانية».

كان هذا الوعد يواجهها كيفما اتجهت انظارها في البيت، ولكن المؤسف هو ان جميع لياليها المقمرة تحمل عليها اللعنة. تحركت فيها روح الانفعال ومعها شيء من معنويات آل ماكسويل.

التفتت اليه وقالت:

«هات محاضرتك ولنته من الأمر. لا جدوى في ان اوضح لك ما حدث لأنني اعلم ان مزاجك لا يسمح لك بالاصفاء. اللورد فوكس رأى وقرر واصدر حكمه بالاعدام. متى ترسلني الى شجرة الاعدام؟».

ما كان يجدر بها ان تثرثر مع رجل فقد صبره. وفجأة وجدت نفسها محمولة في الهواء.

رفعها عن الارض والقي بها بعنف امامه.

قال حانقا:

«تصرفك الاناني واستهتارك يفوقان كل تصديق انك لا تبالين بمشاعر الآخرين ولا تخجلين من السعي وراء ملذاتك. انت مجنونة، مطلوبة، فارغة الرأس لا هم لك سوى زيادة عدد ضحاياك...».

وراح ييزها بعنف حتى اصطكت اسنانها.

وعليك اللعنة. تجعليني اتحمل عن كل شعور حضاري بمعني من جلد امرأة بالسوط. كم افهم واغفر التعطش للانتقام الذي جعل اسلاقي يطاردون آل ماكسويل الاشرار».

واشدت قبضته عليها مما جعلها تنن فقال:

«ليتك كنت رجلاً، لصيت عليك جام غضبي بالطريقة التقليدية. ولكنني سأجأ الى اسلوب اقل ارضاء في العقاب».. زجر ببضع عبارات وامسك بشفتها السفلى بين سبائه وابهامه وراح يضغط عليها حتى ادماها مسياً لها بذلك جرحاً في قلبها يلزمها مدى الحياة. انه درس في الازدراء اكثر ايلاماً من الضرب واشد تأثيراً من لسع الكلام، وهذا جعلها تعاني من كدمات خفيفة مؤلمة، ثم دفع بها بعيداً عنه وسار مغادراً الغرفة من دون ان يرمقها بنظرة، سرعته في الخروج دلت على انه لم يعد يطيق رؤيتها ولو للحظة واحدة!

NLO

١٢- سيتهطم قلبي

لازمت تامي غرفتها لمدة ثلاثة ايام تعالج شفتها الجريحة وكبريائها المحطمة. ولما تجرات أخيراً على المهيوط لتناول الطعام تحيت غياب آدم.

لحسن حفظها ان كثرة اشغال آدم في الاسابيع التالية لم تنح له الشعور بوجود الفتاة الشاحبة التي تسلك بحذر في اروقة فوكس هول والخوف يسيطر عليها، تجفل اذا لاح ظل في القاعة القديمة. طيف تعيس لفتاة مريحة جريحة تمكنت في مدى شهرين من احياء نار بقي كامنًا عصوراً طويلة.

والمدحش هو ان العمة فيني اثبتت كونها حليفة جريحة لها. بالرغم من انها لم تفه بكلمة استنكار ضد آدم فانها اعربت عن استيائها من

LIILAS.COM

معاملته لعروسه بزفرتها الحارة ويتقطيعها الدائم، وبذلك افهمت تامي انها الى جانبها، ولكن تصرفات آدم الصارمة منعت العمتين من التدخل. كان في صغره يتحمل توبيخ العمتين، اما الآن فهو اللورد فوكس ولا يتحمل ذلك.

العمة فيني هي التي حرّضت تامي على الخروج لمشاهدة جز الصوف: كل من في الجوار يتجمعون لمشاهدة الرجال يقومون بجز الحراف ووضع العلامات عليها. اما النساء فينهمكن في تقديم الطعام والمربطات.

اهملت تامي تطريزها الذي كادت ان تنجزه وسرحت بصرها عبر النافذة. بدت لها الجبال مختلفة الشكل وبعد قليل ادركت السبب. كانت خراف بيضاء كالثلج تنتشر في مساحات شاسعة تكسوها الاعشاب. بقرب المنزل ثمة نعجة كانت دائماً تخيفها ولكنها لم تعد تخيفها بعد ان جز صوفها وتضاهل حجمها الى النصف. التعاج التي كانت حتى الامس تبدو جميلة المظهر بدت غتلفة كلياً بقوائنها الدقيقة واكفائها النحيلة. تنهدت تامي وقررت ان تعمل بنصيحة العمة فيني فتخرج وتنشق الهواء الطلق. لا خوف عليها من لقاء آدم اذا لم تبعد كثيراً عن المنزل. خفق قلبها بشدة. كان منهيكا في مراقبة جز صوف الحراف واذا لم يشد عن قاعدته فانه لن يعود الا في ساعة متأخرة من المساء ليسرق النوم لبضع ساعات ويستيقظ عند الفجر.

سارت الى الخارج وانكأت بذراعيها على البوابة. كانوا يجيئون بالخراف، والطريق تغص بسيل لا يتقطع من حيوانات مملأ ثغاورها الجو ضجيجاً.

في اعالي الجبال كانت كلاب الرعاة تتجول بدون توقف لتدفع بالخراف المتخلفة الى المهيوط. وقتت تنفرج وقد اعجبت بذلك الكلاب وهي تجوب الصخور لتخرج من بينها الحراف وتبعدها عن الاماكن الخطرة ثم تعود لتدفع بخروفين قررا عدم اللحاق بالقطيع

«بإمكان المرأة تقدير مشاعر الرجل بدقة وخاصة إذا كانت تراه بانتظام. جميع أهالي الريف يغبطون آدم لتوفيقه بعروس لا تتطلب شيئاً من وقته».

قالتها بام بلهجة لازعة واضافت:

«ولماذا لا تعترفين... وتعودين الى لندن؟ وجودك هنا يجرح آدم وهو شديد الحساسية بالنسبة لانتقادات اصدقائه. هذا لا يعني اننا لا نحبك اليك».

واعترت صوتها رنة عطف زائفة جعلت تامي تصرف باستنائها. «لا مكان لعبارة سبيل مثلك في هذا المجتمع العامل. انت انتى للزينة تسر العين ولكنك غير منتجة. رجال الجبال يطلبون ميزة معينة في الزوجة وهي القدرة على مشاطرتهم العمل. خذي اليوم مثلاً، بينما كنت تتجولين للتسوية كنت انا اراقب تقديم الطعام والشراب للعمال. طلب الي آدم المساعدة وسرني القيام بذلك. من العمتين لا تسمح لها القيام بهذا العمل الشاق، اما انت...».

وهزت بام كتفها تاركة الصمت يعبر عن ذاته ثم قالت: «إذا كان امر آدم يملك حقاً فعودي من حيث اتيت ولا تتواني في اطلاق سبيله».

كادت تامي ان تخنق غضباً غير ان كرامتها اطلقت جواباً من حنجرتها الشكنمة:

«من يسمعك يعتقد ان زوجي ضعيف الشخصية يفترق الى التفكير المستقل. ربما عرفته قبلي ولكني لا اصدق ان يكون زوجي قد بحث اموره الخاصة مع امرأة غريبة».

وشدت قامتها اذ شعرت بكونها قزمة امام طول بام الفارع وقالت:

«لو شاء آدم استرجاع حريته لطلب ذلك مني بنفسه، وحتى الآن لم يبدر منه أي لامبالاة تحوي».

شعرت بلذة الانتصار عندما عضت بام على شفتها وبذلك

دفعها الفضول للهبوط الى الوادي حيث تمّ تجميع الخراف في زرائب الى ان يحين دورها في الجز. كان الرجال يجلسون على مقاعد خشية وعلى ركبهم اكياس كبيرة يمزون الصوف بسرعة فائقة. وقوام الحيوانات مقيدة مما اثار ضحك تامي اذ لاحظت عليها السخط في البداية لانها تتعرض للجز الذي يجعلها تبدو عارية ومضحكة للغاية، ثم تقفز مبتعدة لتنضم الى باقي القطيع العاري. امضت ما يقارب الساعة على هذه الحال ثم تولاه خوف شديد لدى رؤية رأس اسود فأسرعت عائدة الى فوكس هول. وعندما أصبحت في مأمن ابطأت لتأمل مشهد الحملان وهي تعود للانضمام الى امهاتها وادهشتها سرعة معرفة كل حمل لأمه، ويبدو ان دهشتها كانت واضحة لأن صوتاً الى جانبها قدم لها المعلومات:

«لا مجال لأن تتعرف الحملان على امهاتها بواسطة النظر بل بواسطة الشم. قد تكون رائحة جميع الخراف واحدة بالنسبة اليك ولكنها تختلف بالنسبة لكل حمل».

استدارت تامي والخوف يملأ قلبها اذ عرفت الصوت المتعجرف حتى قبل ان يقع بصرها على بام. اخذت نفساً عميقاً لكي تهدئ اعصابها.

«شكراً لاخبارك في... كنت اتساءل».

لم يكن في سلوك بام ما يوحي بالمودة: «انا ايضا اتساءل حتى متى تبقيين حيث لا يرغبون فيك. التظاهر بكونك عروساً سعيدة لم يعد يجوز على احد واعلم ان آدم متضايق».

اجابتها تامي:

«امأكدة انت ان معلوماتك هذه ليست صادرة عن امنية تداعب غيلتك؟».

دفقة الاحمرار الذي اعترى بام لم يؤثر على مظهرها. الغريب انها تحاول دائماً ان تظهر هادئة.

افصححت عن قلقها. وحفاظاً على كرامتها لجأت الى خدعة يائسة، وبعد ان اضفت على صوتها رنة من الشفقة قالت تامي:
«الرجل يجب تعدد الزوجات، ولا ترضي نزواته العديدة الا عدة نساء مختلفات للميزات، ولسوء حظه لا يسمح له القانون الا بزوجة واحدة وهي لا تكفي لارضاء جميع نزواته وعندما يختار زوجة عليه ان يجد فيها معظم متطلباته. كما سبق أن قلت، انا لا اتفن الاعمال المنزلية، ولكن ثمة مجالا ابرزك فيه، سلي نفسك يا بام ما هو الدافع الذي يجعل الرجل يتغاضى عن الغبار في المنزل وعن وجبات الطعام البسيطة؟».

كانت بام ساذجة القلب! تولت تامي فرحة شريفة للاخراج الذي سبته عباراتها اللاذعة للفاتة الاكبر سناً.
«ما انتا سوى مبتذلة رخيصة».

قالتا بام بحدّة واستدارت على عقبها لتبتعد ما امكنتها عن ضحكة تامي الوقحة المثيرة للحنق.
ولكن سريعاً ما تلاشى سرور تامي بالنصر فبالرغم من خروجها متسورة فان بعض اقوال بام ألتها كثيراً وخاصة قولها ان آدم طلب اليها ان تساعده في اعمال الجز، اذ انها تشعر بقدرتها على القيام بهذا العمل، ولكنه لم يتح لها فرصة للمحاولة بل اختار بام مساعدة له وبذلك صبّ الزيت على نار الاقاويل التي تثير ضجة في المجتمع كما قالت بام.

امضت ما تبقى من النهار في غرفتها تعالج استنكارها المتزايد لتصرفات آدم. انه يدين لها بالوفاء الى ان يتم البيت بأمر زواجها، قالت ذلك وهي تذرّع الغرفة جيئةً وذهاباً.
«سأنتهي الأمر معه الليلة، سأصر على التحدث اليه لحظة دخوله معها كان تبعاً».

وبعد ان نسيت خوفها راحت تحبب الغرفة وهي عرضة للاضطراب عاجزة عن التركيز على اي عمل بينها افكارها في غليان.

ولأنها ابت تناول العشاء، حملت العمتان العطوفتان صينية طعام الى غرفتها ولكنها لم تقر بها لأنها لم تستطع ارغام نفسها على تناول ملعقة واحدة من الحساء.

كان الوقت قد قارب منتصف الليل عندما سمعت صوت السيارة تدخل محر البيت. وبدون ان تتوقف للتفكير اندفعت تامي الى الطابق السفلي ووقفت في القاعة ترعّب داخلياً وكاد آدم ان يصطدم بها وهو يجتاز المدخل.

امتدت يده لتمنعها من السقوط:

«لماذا لست في فراشك؟».

سألها ببرود وهو يسحب يده.

فاجابت ببرود مماثل، مصممة على الا يتغلّظها الاقدام:

«ثمة امر اود بحثه معك».

«الا يمكن تأجيله؟».

قالها من دون ان يبدو عليه اثر للضيق. خلع سترته قبل ان يتجاوزها الى المكتب حيث سكب لنفسه فنجاناً من الشاي وراح يرفشه بسرعة ولما انتهى منه سكب فنجاناً آخر ولم يسكب فنجاناً لها:

«ما الأمر؟».

وحمل فنجانته الى مقعد حيث جلس ومد رجله مسترخياً على الوسادة بعد ان اطلق زفرة ارتياح.

لم تكن اللحظة مناسبة للمجابهة ومع ذلك فان القهر لن يدعها تعرف الراحة.

اندفعت قائلة:

«كنت اتحدث مع بام اليوم».

فهمس وهو يغمض عينيه:

«احسنت صديقاً، انها بارعة في الحديث في معظم المواضيع».

فردت بمرارة:

NLO

«بما في ذلك موضوع زواجنا».

لم تبدل اساريه بل بقي متمالكاً اعصابه وكأنه ثعلب ينام واحد على عينيه مفتوحة، وكانت تامي تدرك انها تستحوذ على كل انتباهه.

«طلبت الي تلك الليلة ان اكون على مستوى مركزي الاجتماعي ومع ذلك تحط من قيمتي بتجاوزي وبالطلب الى بام ان تتولى مسؤولياتي وهي تقديم الطعام والشراب للعمال».

ظهرت الدهشة في عينيه الزرقاوين وقال:
«كنت اجهل انك ترغبين في القيام بعمل لا تقدرين عليه».

فردت عليه حاتقة:

«كان الاخرى بك ان تسألني».

وشابت صوتها رنة من التهكم وهي تقول:
«ولكنني نسيت كم كنت مشغولاً بمرافقة بام في المنطقة مفسحاً للمجال ليس فقط لتزايد الاقاويل بل مقبواً اقتناع الناس بأنني خسارة كبرى عليك كنزوجة. ولشدة ثقة بام بذلك فقد المحت الي بانها تريدني ان اخرج من حياتك لتحل هي علي، كان بإمكانك ان توفر علي ذلك اذ الاخرى بك ان تتريث حتى تتخلص من امرأة قبل ان تأخذ اخرى».

بقي مسترخياً في مقعده دون حراك. رمقها بهدوء وقال:
«انا اعتبر بام الزوجة المثالية للمزارع الجليل. انها امرأة مكتملة ومقتدرة من جميع الوجوه على الحياة الزراعية، هذا بالاضافة الى كونها جميلة ذات عمارن طبيعية».

فبما كان يعدد مزايها انكمشت تامي على نفسها:
«ولكنني لا اتبع لما التفكير بإمكانية قيام ما يتعدى الصداقة بيننا، حالياً على الأقل، فذلك لا يكون عدلاً لها ولي ولك».

عندما نهض رأت تامي انه مرهق ولامت نفسها لانها اخترت عن النوم، وبدا انه لم ينته من حديثه بعد.

«كلانا يعلم ان زواجنا هو علاقة مؤقتة ولم اجد من الضروري ان اؤكد لك اني سأوليك وفائتي وحمائتي ما دمت زوجتي».

تردد قليلاً ثم قال:

«وكذلك احترامي ولا اظنني فعلت ما يستحق انتباهي باتاحة المجال للأقاويل ولا يمكن ان افعل ذلك ما دامت لي زوجة تقيم في منزلي».

ثم اردف متثاقلاً:

«ايضيرك ان أوي الى الفراش؟».

شعرت بضميرها يؤنبها. الارهاق الشديد فظاير عليه، وبحركة لا شعورية اندفعت نحوه وطوقت خصره بذراعيها الا انه كان اشبه بقطعة من صوان ولكن ذلك لم يردعها عن الكلام.

«بؤسفي ان اكون عبثاً عليك. كم اتمنى ان اكون زوجة مزارع ناجحة ولكنتك لم تنح لي فرصة المحاولة. منذ البداية لم ينشأ بيننا سوى سوء التفاهم».

ونظرت الى عيائه الهادى واستأنفت القول:

«هلا حاولت ان تمحو من ذهنك فكرة كوني عديمة النفع وأنانية، وجميع النعمت التي اطلقتها علي؟ اريد لزواجنا النجاح. انا احبك يا آدم وحيي لك يفوق كل حب وستحطم قلبي اذا تخليت عني».

كان جسده اشبه بصخرة لا تلين ولم يوح اليها بأي امل، تنحى جانباً وتركها وكأنها على حافة هاوية تائهة الافكار واصابعها تشبث بالهواء.

ربما كان ذلك من جراء الارهاق ولكنها فضلت الاعتقاد انه لم يتأثر ابداً عندما قال لها بصوت اجش:

«ثمالكي نفسك، المرض أضناك وربما اثر على عواطفك، بعد بضعة اسابيع عندما تكونين قد ثمالكت عافيتك، ستندمين على هذه الأقوال».

NLO

هزّت رأسها تمهيداً للاعتراض على ارتيابه في اخلاصها، ولكنه تجنب النظر الى عجاها البائس وقال:

«منذ مجيئك الى هنا لم تفعلي ما يجعلني أعيد النظر في رأيي الاصيل. انت صغيرة ومندفعة وبسبب حياتك للدلالة السابقة تسعين الى نيل كل ما هو صعب المثل. لو ان في تصرفاتك ما يجعل طابع المسؤولية لا بتدأت بتغيير رأيي. ما زلت في نظري تلك الصغيرة المدللة المتعجرفة، اثبتني في مقدرتك على الصبر وعلى كبح جماح نفسك. اثبتني في ولولمة واحدة قدرتك على القيام بمهمة شاقة واحدة فأنتى الجدال الثابت ضد بقائك هنا».

ومد يده الى الباب وقال:

«هذا الحديث طال».

وأوما اليها برأسه لكي تسير امامه.

«اني متعب جداً ولا طاقة لي على المزيد من الجدال».

وسارت تامي امامه بصمت الى فوق وتوقفت امام باب غرفتها حيث امسك آدم بذقنها بين سبائته واجامه وحلق في عجاها العابس وقال:

«الاشهر القليلة من زواجنا كانت مسرحاً للمجهاد والكفاح، أمضيتها في استياء وتعماسة وانت الآن حائرة وحيرتك تمنعك من فهم نفسك. قريباً ينتهي موسم جز الصوف ويعده المعرض وعندها ستكون في وضع يسمح لنا باتخاذ قرار بشأنك».

وليضع حداً للجدال دفع بها الى داخل غرفتها واغلق الباب حيث وقفت لا تأتي حراكاً تصفي الى الحركة الجارية في الغرفة المجاورة وعندما سمعته يطفىء النور انتقلت الى النافذة تحديق بعينين تائهتين في الليل المظلم.

وضمها قيد الاختيار.

من الآن حتى موعد المعرض سيقوم آدم بتقدير حسناتها وسيثاتها قبل ان يقرر نهائياً في ان يبقيا هنا زوجة له أو لا. وافلست منها أمة.

NLO

كانت حائرة بين ان تقفز فرحاً او تبكي يأساً.
ارتفعت معنوياتها عندما فكرت بان الهدنة المضطربة هي أفضل من العداة. اذا اتاح لها فرصة للتفاهم فقد تتمكن من اقناعه بانها امرأة ناضجة وليست طفلة مدللة كما ظنها.

١٣- فرحة لم تكتمل

استيقظت تامي صباح يوم المعرض يساورها شعور بأنه اليوم المشهود في حياتها، وسرحت بأفكارها تتلذذ بالمباهج المتوقعة. ستمضي النهار بكامله مع آدم، وستكون العمتان معها، ولكن ليس طوال الوقت لأنهما حتماً مستجولان بين اصداقائهما، ثم يحين موعد الحكم على اشغال المتبارين والنتائريات. كانت قد ارسلت شغلها، بمساعدة العمتين، الى حيث سيقام المعرض بعد ان دفعت رسوم الاشتراك. بطاقتان فاخرتان تحملان رقمي القطعتين اللتين اشتركت بهما واللذين تتيان العمل الذي قال آدم انها عاجزة عن القيام به. سيكون هذا اليوم حاسماً. انه اليوم الذي حدده آدم لاتخاذ قراره النهائي بشأنها.

NLO

لم تكن الاسابيع السابقة قد ذهبت هدراً. استطاعت ان تمضي فترة معه كل يوم، تارة لخمس دقائق وطوراً لمدة ساعة، وفي كل مرة كانت الهدنة بينهما تزداد رسوخاً، وكان الجو بينهما ودياً تقريباً. جلست في فراشها وارتمت على شفتيها ابتسامة سرور. العقبة الوحيدة بينهما هي تأخر آدم بالاقرار بالهزيمة. ابتسمت وهي تتذكر احداثاً متباعدة حين كانت العاطفة تجعل عينيه داكتين الى حد السواد، وكان يردد اسمها بصوت اجش، وحين تصلب جسده عندما تجرأت مرة ووضعت رأسها على صدره وسمعت خفقات قلبه المتلاحقة.

قفز من سريرها وجرت الى الحمام مصممة على ان تبدو في قمة الجمال عندما تذهب للملاقاته.

قال لها آدم في الليلة السابقة:

«ولا داعي لأن تهضي والعمتين باكراً. سأكون في ساحة المعرض عند الفجر ولا بأس اذا اتيت في موعد الغداء».

تبادلت العمتان ابتسامات السرور عندما هبطت وهي تبدو كالزهرة الندية، في ثوب قطني زهري اللون بدون اكمام وتتوزع واسعة مستديرة.

ابتسمت العمة هونور وقالت:

«وكم تبدين متألقة».

وقالت العمة فيني يتجهجج وفي عينها نظرة حنان:

«فعللاً، سيفخر آدم بهذه الامراة».

عانقتها تامي. كانت تتعجل في تحقيق آمالها ولكنها لم تشأ استباق القدر. انها ماهرتان في تفهم مزجة من تحيان بحيث ان الايضاح لم يكن ضرورياً.

«هل نحن جاهزات؟».

وسارت بهما نحو الباب.

وانها الساعة الثانية عشرة. كانت قد وعدت آدم بموافاته في

فاجابت العمة فيني بدون اكتراث:

«مستظرك حتها، انه لازمك كثيراً في الاسابيع المتصرمة».

وضحكتم العمتان بصوت مرتفع عندما اصبح لون وجه تامي
يحامي لون ثوبا.

كان الصباح ماطرأ اما الآن فالشمس مشرقة. وبينما كانت تامي
تنطلق بسيارتها نحو الجبال المحيطة بالوادي حيث يقام المعرض خيل
اليها ان الجبال تبتسم لها. عندما اوقفت السيارة وسارت مع العمتين
الى حيث كان المشرف على المعرض يدير العمليات، كانت الشمس
تتألق على الساحة الطبيعية في واد وارف الاشجار تجري فيه السواقي
وتغيم عليه مساء زرقاء كعيني آدم تشوبها غمامات متفرقة تنج القمم
المحيطة بالمكان.

مررن بمجموعات من الماشية وسط عاصفة كبيرة من الحماس اذ
كانوا على وشك اختيار افضل حيوان في المعرض.

قالت العمة فيني:

«يجاول اولئك الخمقى تفضيل اي حيوان من هذه الحيوانات
المتنازة عل سواء، بيضا يمكن لأي مرب للمواشي ان يقول لك ان
ذلك مستحيل».

رجال اشداء يتعلمون احذية مطاطية ومعاطف بيضاء كانوا يجرون
مجموعة من الابقار في دائرة بحيث يمر امام لجنة التحكيم التي كانت
تدون الملاحظات في دفاترها. سار احد الحكام الى بقرة ورفع ذيلها
وريت على بطنها وهز برأسه وعاد الى زملائه.

قالت العمة فيني:

«بجرد تمثيل، قد تكون هذه البقرة هي الفائزة».

جالت تامي الساحة بنظراتها بحثاً عن آدم، وراحت رأسه بشعره.
الاسود يعلو رؤوس بعض الرجال الذين تجمعوا قرب زرائب
الحراف، وفي اللحظة ذاتها التفت آدم ورأها ولوح لها بيده. شعرت

وكان تياراً كهربائياً سري منه اليها مزيلاً كل عتبة تعترض مسيله،
ومولداً حقلاً مغناطيسياً اجتذبت احدهما نحو الآخر ببطء.

عندما التقيا امسك بيدها وفتحها وطبع قبلة على راحتها،
فاطبقت يدها عليها خشية ان تطير منها وقد اذهلها باظهار عاطفته
بهذه الطريقة غير الاعتيادية.

قال بصوت اجش منخفض:

«مرحباً يا تامي».

فردت عليه من اعماق قلبها:

«مرحباً يا آدم، وصلنا لتونا».

«اعلم ذلك، كنت اترقب وصولك».

هذا الاقرار جعل قلبها يطير فرحاً. تحرركها البطيء نحو تفاهم
افضل كانت تدفع ضربيته صبراً مريراً. ولكنها ابتدأت الآن فقط
تدرك ان القيد الذي فرضه كان يستحق كل ذلك. كان يختبر مدى
نضوجها، وكانت حرارة تحيته اشبه بمكافأة لها.

«هل انت خائفة؟»

ولم ينتظر ردها بل امسك بذراعها وسار بها نحو المنصة المعدة
لتقديم الطعام.

«الافضل ان نأكل باكراً تجنباً للازدحام».

وعارضت بضعف:

«والعمتان؟ ان تشاركنا الطعام».

فقال بركة:

«دعيتها وشأنها».

رغبته غير المتوقعة في مرافقتها زادت من خفقات قلبها المتلهف.
تناولا الغداء الى مائدة لشخصين في ركن هاديء من المنصة بعيداً
عن الازدحام. لم تدرك تامي ماذا اكلت. سقط القناع القاتم عن وجه
آدم ليظهر عياه المرح الذي كانت قد لمحت ذات مرة وقد انبأ بوضوح
تام بالقرار الذي المبح بانه سيتخذ اليوم. لو كان الطلب اليها العودة

NLO

الى لندن لما رمتها هاتان العينان الزرقاوان باعجاب، ولما لازمت هذه الابتسامة الخالية شفتيه. شعرت بخفقة مجنونة في قلبها عندما التفت نظراتها. صقر الجبل يبدو اليوم مستعداً لأن يأكل من يدها. كانت تمنى ان تمضي بقية النهار في ذلك الركن الهادي، ولكنها استاءت عندما جاءت العمتان لتفسدا عليهما عزلتهما. «اسرعي يا تامي، التحكيم في الرسم والتطريز على وشك ان يبدأ، واستناداً الى الملاحظات التي سمعتها فان ما تقدمت به سينال الجائزة الاولى حتماً. هل رأيت قطعتها يا آدم؟ انها رائعتان».

واشرقت عينا العمة هونور بفخر. قالت: «انها تضعان المعروضات الاخرى في الظل، والتجهم يعلو وجهي بام وعمتها». «ارتفع حاجبا آدم دهشة، ولكنه لم يبد اي تعليق وهم يسرون الى منصة المعروضات.

انتظرت تامي ودة الفعل لديه باضطراب شديد. كانت لجنة التحكيم المؤلفة من سيدتين ورجل تسير متمهلة حول الرفوف التي تحمل عينات رائعة لأشغال المطرقات الماهرات.

كانت قطعها معروضة بطريقة مميزة، حتى ان الطيور التي تبدو وكأنها حية كانت تغري المرء بان يمد لها اصبعه لتحط عليها، برزت بطريقة مثيرة، اوراق النباتات زاهية الالوان مزدوجة ومتشابهة تكسوها اعداد كبيرة من البراعم المغلفة باوراق تتراوح الوانها بين الاصفر الزاهي والاحمر. والتطريز الناعم الدقيق انتزع آهات الاعجاب من المشاهدين واصطبغت وجنتا تامي بحمرة الحماس عندما وافق الحكام بالاجماع على اعطاء الجائزة الاولى للمعروضة ذات الرقم الخامس عشر.

صرخت العمة هونور باحتياج: «انها معروضتك يا تامي. تكاد الدنيا لا تسعني من شدة اعتزازي

بك».

حتى العمة فيني تحمست فطبتت قبلة سريعة على وجنة تامي المتوهجة وقالت:

«احسنت يا عزيزتي، احسنت».

استدارت تامي لتواجه آدم وكلها حماس لسماع تعليقه. بدا عليه الاستغراب والذهول ثم تمالك نفسه وامسك بيدها ونظر الى اظافرها التي يكسوها طلاء زهري يتمشى ولون ثوبها، ثم الى اصابعها الرقيقة التي بدت وكأنها لا تستطيع العمل ويلادها القول:

«لم يخطر لي... لا شك انك عملت بمثابة فائقة حتى انجزت كل هذا العمل في مثل هذا الوقت القصير، مع انني لم ارك تشتغلين. متى اشتغلت؟».

«عندما كنت وحيدة في غرفتي. شئت ان اجعلها مفاجأة لك. وعندما كنت تفاجئني بدخولك كنت اخشى الشغل تحت الوسادة الى ان تنصرف».

«فهمت».

شدت بها العمة هونور قائلة:

«هيا بنا، معرض اللوحات يقام هنا».

وراحوا يشقون طريقهم في الازدحام، ولكنهم سمعوا تصغيقاً حاداً وفاتهم سماع اعلان الفائز. مدت تامي والعمتان اعناقهن ووقفن على رؤوس اصابعهن ليستطعن رؤية المكان الذي وضعت فيه شارة الفوز ولكنهن اضطررون للاعتماد على طول قامة آدم الذي كان بإمكانه النظر من فوق الرؤوس المزدحمة ليقدّم اليهن المعلومات.

فقال لمن وقد امتنع لونه:

«الرقم عشرة، الليدي فوكس، من فوكس هول».

ثم استدار بها وخرجا معاً من الحيمة وكأنه يرفعها عن الارض، ولم يدع قدميها تلامسان الارض واستمر في السير بها الى ان وجدا

NLO

مكاناً هادئاً خلف خيمة الاسعافات الالوية. نظرت تامي الى عياه وادهشتها ملاحظه المذهولة. الخائرة.

«استغفرتني فعلاً، اليس كذلك؟ لا شك انك ضحكت كثيراً من وراء ظهري وانت تتظاهرين بهدر الوقت، بينما كنت تعملين بسرعة ويتكتم متعمداً لكي تذهلني النتيجة، وقد اذهلني فعلاً ولا يساورني ادنى خجل مما اقول. ادين لك بالاعتذار يا تامي، فانت لست تلك الطفلة المدللة العديمة النفع وما دمت قد اخطأت في هذا الامر فقد اخطأت في الامور الاخرى ايضاً».

لحظة كهربائية لم تكن كافية لاستيعاب التيار الذي سرى بينها بعدها صوت انطلق بيروود.

«أسف لتدخل بدون استئذان، ولكن بصفتي واحدة من لجنة تنظيم المعرض طلبوا الي جمع كل الفائزين لاجراء مقابلة لهم مع الصحافة المحلية. يجب ان اهتلك يا تامي».

قالت بام ذلك من خلال شفتين مضمومتين، ثم تابعت: «يبدو انك حظيت بما يتعدى كونك مبتدئة».

عندما استدارت على عقيها ومشت كانت تتوقع ان يلحقا بها. اطلق آدم ضحكة استهزاء اضحكت تامي. كانا لا يزالان يستمتعان بطرفة عندما سمعت تامي صوتاً آخر لم تتوقع سماعه ينطلق بطريقة ملفنة للانتباه.

«ها هي تامي، المرأة الصغيرة الخبيثة! آتية ماكسويل المتحفظة، بطلة قسم التطريز المحرق شوقاً للعودة الى لندن لآخر اترابك».

كان ذلك ستيف هاريس الذي اخزن حقه الذي اصبح كالسوس الناصر ليصبه عليها في هذه اللحظة بالذات.

«ماذا... ماذا تفعل هنا؟».

قالتها هامسة وقد بان في عينيها انهار صرح آمالها. لم تتوقع عجي. ستيف وانتقامه لكبريائه المحطمة. كانت تظنه بعيداً جداً ولا يمكن وصول حقه الى هنا.

انطلق صوت آدم عمزقاً هذا الصمت الغريب. تكلم بصفته سيد هذه الجبال وقال بصوت يغلفه البرود:

«انك تضاهي العجائز مهارة في اطلاق الشائعات يا هاريس! انت في غير مكانك هنا واتصحك بالعودة الى الجحر الذي خرجت منه».

ازداد عجا ستيف استقاعاً وادار ظهره لآدم وخطاب تامي: «أنا في اجازة طويلة. طردت من وظيفتي بفضل تأثير اموال والدك وجشع رئيس التحرير، ولكن بعد كميراً لم يمنعني من المجيء للانتقام خاصة انهما لم يصدقا ان ما كتبه كان من تدبيرك انت، وانك خابرتني بنفسك هاتيفاً لتضمني اشراكي في لعبتك. كالمعتاد يا تامي نجحت في نيل مبتناك».

استقرت نظرتة الثالثة على آدم للحظة قصيرة وقال: «لم تفكري بالأذى الذي تلحقينه باصدقائك».

احست تامي بغصة الحنوف تعصر معدتها، وكان الجمهور قد تفرق ولم يبق سوى بام وآدم وستيف لمشاهدة اهانتها.

كان آدم يقف وراءها فقات بنبيرة باردة: «هلا اوضحت ما تقول؟».

كان ستيف على اتم الاستعداد لتلبية هذا الطلب: «لا تقل لي انك تجهل اللعبة التي مارستها تامي عليك تلك الليلة».

واطلق ضحكة عالية وهو غير مصدق.

«انكم معشر اهالي الجبال، تشتهرون بالسذاجة ومع ذلك كان يجب ان تدرك انها خرجت بالزورق وهي تعلم ان ما يحويه الخزان من وقود غير كاف، حتى ولو لم يخطر ببالك انها اتصلت بي لتضمن وجودي بالانتظار ومعني آلة التصوير لتسجيل تلك المغامرة للأجيال الطالعة».

استقرت عينا آدم على عيهاها بيروود وصلابة كالصخرة التي تحرس

NLO

١٤- عروس من ثلج

غيوم غريبة أخذت تتجمع فوق الجبال، ولو كانت نامي من اهالي المنطقة لأدركت انها اذار بتبدل الطقس. مجموعة من الغيوم الطويلة المتوازية تشير بكل وضوح الى أن ربحاً غاتية ستهب. ولو كانت العمة فيني هنا لقالت:

«انها ربح كفيفة بانتزاع ريش اوزة».

حتى ولو كانت تعلم لما كان لذلك اي تأثير على هربها المريع من اعدائها. اتجهت نحو سفح الجبل والدموع تنهمر على خديها، وانطلقت نحو الجبال الاكثر ارتفاعاً ولم تتمهل الى ان أخذت قدمها تترلقان على الاعشاب. استأنفت الصعود والآن يمزق رثيها وكادت ان تبلغ القمة عندما ارقمها الم اطرافها ورثيها على الامسراحة. ومن

منزله وقال:

«انت فعلت ذلك؟».

«انا... انا...».

وراحت تلمق شفيتها الجافيتين بينما كان عقلها يبحث عن اعداء بسرعة رموشها المضغلة. كانت مجرد طرفة غير مؤذية حينذاك ولكن ستيف عرضها بطريقة جعلتها تظهر بمظهر الخدعة الرخيصة. «بالطبع هي فعلت ذلك».

قالتها بام بصوت تطفئ عليه رنة الانتصار وازافت: «كنت ضحية خدعة كما فعلت احدى شريرات آل ماكسويل بواحد من آل فوكس السابقين. يا لآدم الشهم المسكين!». لم تستطع نامي الاحتمال اكثر من ذلك. وفيها كانت العيون المليئة بالاثام تتسلط عليها، داوت على عقيبها وانطلقت نحو الجبال الموحشة المجاورة متمنية ان يتلعها فلا تعود لمواجهة آدم الذي يفيض اشمئزازاً.

دون ان تبالي بما سيلحق بثوبها من تلف انزلت وراء احدى الصخور الضخمة وفردت ذراعيها على سطحها البارد وألقت برأسها عليها وراحت تتحب.

انقضت ساعة كاملة قبل ان تبدأ تماماً لكي تعيد النظر في حالتها. اعمت عينها واصمت اذنيها عن كل ازعاج. التصقت بالصخرة وسمحت لعقلها المملب ان يردد: «انتهى زواجك. آدم يكرهك ويحتقرك. يجب ان ترحلي، ارحلي... ارحلي...» كانت قد توصلت الى هذا القرار عندما اخذت قطرات المطر الاولى تنهمر على وجبتها الساخنتين.

ارتجفت وشعرت فجأة بالبرد يخترق ملابسها الرقيقة. التفتت الى الورا وذعلت، على مقربة منها غمامة كبيرة تتقدم، تهديد بطيء زاحف نحوها، غمرت الغمامة القمم وتستمر الآن في المهبوط. هبت على قدميها وقد افزعها قصف الرعد وقطرات المطر الضخمة المتسارعة المتساقطة الى ساقية قريبة. فأت الأوان لتذكر محاضرات آدم على جتون السير في الجبال من دون المعدات اللازمة. «قد يكون السير على الجبال ممثماً ولكنه شديد الخطر. لا تخرجي بمفردك قبل ان تصيحي أكثر ذراية وحتى بعد ذلك يجب ان تكوني شديدة الحذر وتذكرني المصاعب التي تنشأ اذا اصابك اذى حادث». ارتعدت ثانية اذ تردد صدى تحذيره في مسامعها ونظرت حولها خشية ان يبرز بقامته المديدة. وعمل عقلها في هذا الاتجاه وراحت تعد الجدل الذي سوف تبديه لذلك المستبد اذا برز امامها: «كان نهراً طويلاً حاراً، الشمس تسطع في السماء الصافية، والحريتراقص على الصخور، والسواقي تجري طبيعية، كيف كان لي ان اتباً بتقلب الطقس؟»

وما ان انتهت من الجدل حتى كان المطر قد بللها كلياً. قبل ذلك بدقائق معدودات كان كل شيء هادئاً تماماً ومع ذلك فقد هبت الريح الآن وهي ريح عاتية حارة وتتلر بالسوء. وعندما لمع البرق في السماء

المثليدة، اخذت تامي تهبط الجبل راكضة وقلبها يحقق بعنف وقد جفت حلقتها من شدة الخوف. وعندما اسرعت في الجري تحول الطقس الحار الى جحيم من الاصوات والهياج، فالرعد يقصف والبرق يشق كبد السماء والمياه تنهمر كالشلال.

توقفت تامي تلهت وهي تحاول فتح عينها المليتين بالمطر. تحول المعز الى مستنقع منحدر شديد الانزلاق والسواقي البطيئة تحولت الى سيول تجرف كل ما يعترض سبيلها. لم تر تامي بدأ من اكمال مسيرتها. قبل ان تهب العاصفة كانت قد ألقت نظرة عابرة على سطوح الخيام المنصوبة في الوادي وقالت في نفسها اذا اكملت طريقها فلا بد ان تبلغ شاطئ الأمان.

ولكن صبح ما قاله آدم، فقد علق كعب حذائها بجذر شجرة. فتعثرت وسقطت بعنف على كومة من الاعشاب البرية ظنتها لينة فاذا بها تحفي وراءها صخوراً حادة كالحرايب. شعرت بألم شديد في اتحاء جسدها عندما ارتطمت ضلوعها وكوعاها وربكتها بعنف بالصخور المسترة فاطلقت صرخة حادة ضابعت في غمرة الاصوات المحيطة بها، وحاولت النهوض ولكنها عادت فسقطت وهي تتن عندما عجز كاحلها اللتوي عن حملها.

انقضت نصف ساعة قبل ان تسمع صوت صفارة. آدم يحمل صفارة دائماً.

كان قد اعطاها صفارة وقال لها ان تحملها كلما سارت على الجبال، ودرجها على الاشارات الدولية في حالة الخطر. ست صفرات مدى كل منها عشر ثوان لمدة دقيقة ثم دقيقة استراحة وبعدها ست صفرات اخرى. الصفارة الآن في احد ادراج خرفتها. صرخت بيأس:

«أنا هنا... النجدة، ارجوك، انا جريحة، هنا... هنا!». واستمرت في الصراخ الى ان اصبح صوتها وكأنها في حلم يتردد صدها في جوانب الحفرة السوداء التي انزلت اليها. هنا، اطلقت

صرخة اخيرة بائسة قبل ان يتلقفها فراغ لا قرار له.
«يا لك من حمقاء صغيرة».

وحشية كلماته تعارضت ورقة يديه اللتين تجوسان جسدها بحثاً عن الجروح. طرفت تامي بعينها وفتحتها بثاقف وجالت بها في ملايح آدم التي اثرت عليها العاصفة ورمفته بنظرة حائرة تفيض امتناناً.

NLO

وهمت:

«عثرت عليّ...».

«اصمتي واشربي هذا».

ووضع بين شفثيها فوهة زجاجة من الدواء وارغمها على ابتلاعه.
امسك برأسها بيد وبالزجاجة باليد الاخرى وراح يسقيها الدواء الى ان اطمأن الى تمالكها لقواها وقدرتها على الرد على اسئلته:

«كاحلك متورم كثيراً، هل التوى لدى سقوطك؟».

شعرت بانها مصدر ازعاج له واجابت بصوت خافت:

«اجل، لا استطيع المشي».

«هذا ما خيل الي».

قالها باقتضاب ولم يحاول ستر حزمه بالأجوبة الرقيقة. المطر الغزير تحول الى ستار من الضباب، وبرزت ساقية مكان الممر، وانقشع الغمام المنخفض وبرزت اشعة شمس باهتة.

تحركت عضلات آدم تحت قميصه اللبلل عندما اتحن ليرفعها بين ذراعيه وقد لاح على شفثيه طيف ابتسامة وهو ينظر الى المرأة المتشنجة التي تختلف كلياً عن المرأة الانيقة التي حيأها لدى وصولها الى المعرض. شعرها الكستنائي المشوش والمتنصق بجهتها اضفى عليها شكل القنفذ الكريه وجالت عيناه في انحاء جسدها الذي برزت مفاته تحت ثوبها الرقيق اللبلل المتنصق بها.

تبتعت تامي انحاء نظراته واعتراها حياء شديد، وحاولت عبثاً ابعاد القماش اللبلل عن جسدها.

قال بلهجة جافة:

«اي لغز هي المرأة؟ رأيتك احياناً في ملابس اكثر شفافية من هذه، لماذا هذا الاحتشام المفاجيء؟».

لم تستطع ان تقول له ان عينيه اصبحتا اكثر جرأة، وان شفثيه تبدوان اكثر طيشاً، وان شموخ انفه المستبد يثري حنقها... كان الجو بينهما متوتراً دائماً، ولكنها هذه المرة تشعر بان تياراً خفياً من المشاعر تمهل اسمه انتشلها من اعماقها وجعلها اشبه بطفلة مرتبكة. اهو الغضب؟ اهو الحرج؟ اي قوة هائلة تسبب لآدم هذا الاضطراب الداخلي فيكيح جماع عواطفه؟

كان نقلها بين ذراعيه عملاً شاقاً مفضنياً. للمرة الاخيرة تشعر بخفقات قلبه العنيفة فألقت برأسها على كتفه لتعانقه عناقاً سريعاً حاراً وشددت من قبضتها حول عنقه لتربت على بشرته السمراء باصابع مرتعدة. بعد قليل سيصبح اسمها «الليدي فوكس سابقاً»، وهذا الحاضر جعلها تطلق صرخة صغيرة حافلة بالآلم.

فقال بقلق:

«ما بك؟».

«لا شيء... خيل الي اني سأعطس».

«يجب ان نسرع لنضعك في حمام ساخن، وتجنباً لأي تأخير، عندما تبلغ ساحة المعرض، سندور حولها الى السيارة، وإذا حالقنا الحظ نتسلل من دون ان يرانا احد. ستجد العمتان من يوصلهما بسيارته الى المنزل».

عبء من القلق زال عن كاهل تامي. كان منها الوحيد هو ان تنصرف من دون ان تقع عينها على يام ثانية. مجرد فكرة اقراها بالهزيمة وياتنصار منافستها حركت فيها كبرياء آل ماكسويل.

كل شيء تم بحسب المخطط، كما تتم دائماً رغبات آدم. كان الجميع قد لجأوا الى الخيام هرباً من العاصفة، فكان موقف السيارات خالياً الا من حارس عجوز شاهد رجلاً اسمر مبللاً يلقي بفتاة مبللة

الى داخل السيارة.

اطلق آدم العنان لسيارته في شوارع مهجورة. لم يدر لحظة واحدة لنقل تامي الى الطابق العلوي وراح آدم يصدر تعليماته الخازمة بينما كان يحملها الى الحمام.

«اذا جلست على هذا المقعد تستطيعين انتزاع هذه الملابس المبللة بينما اعد لك الحمام؟»

«بالطبع، كاحلي لا يؤلمني كثيراً الآن واظنه قادراً على حملي».

كان ردّها رقيقاً جداً.

«ارجو ان يكون هذا درساً لك حتى لا تتجولي في الجبال بمفردك في المستقبل. يمكن تأجيل المحاضرات الي ان تصبحي في حالة تسمح لك بان تفهمي اني عندما اصدر امراً اتوقع تنفيذه. هيا، اخلمي ملابسك».

NLO

وبذلك بعث الحياة في حركاتها البطيئة.

«الآن اذا كنت بحاجة الى مساعدة مني».

اجابت متلعثمة:

«كلا، شكراً. استطيع ذلك بمفردتي».

بدت عليه الحيرة وقال:

«خسارة... سأهبط واعد لك فنجاناً من الشاي، لا تتأخري في

الاستحمام».

امضت فترة اطول مما كانت تنوي لأن افكارها كانت مشغولة

بتفسير اقواله. تكلم عن المستقبل. اي مستقبل؟ لا مكان لها هنا في

فوكس هول. حالما يتحسن كاحلها ستحزم امتعتها وتعود الى لندن

قبل ان يامرها آدم بالرحيل.

كانت قد انتهت لتوها من الاستحمام عندما عاد ولم تبد منه حتى

نظرة متهورة واحدة. التي عليها نظرة عابرة ومع ذلك اعترها شعور

غريب.

«رائع، لقد جففت نفسك. حملت اليك الشاي ووضعت قربة

من الماء الساخن في فراشك وسأحملك اليه اذا كنت مستعدة».

تولاها احراج شديد فالتقطت عباءتها عن الارض. ثمة نظرات شريرة ترتبص في عينيه ولم يكن في نيته انارته.

وقالت بصوت مرتجف:

«شكراً، استطيع ان اتدبر امري بمفردتي. يجب ألا ارفه نفسي اذا

كان عليّ الرحيل حالاً الى لندن».

«خطر لي انك ستفكرين بذلك. لا داعي، قررت السماح لك

بالبقاء هنا».

كان يجب ان تبتهج بهذا القول، لأنها تتمنى البقاء وتعتبر الحياة

جحيماً من دونه. وبدلاً من ان تشكوه على غفرانه دفعها الحذر الى

السؤال:

«لماذا».

هز كتفيه وقال:

«اعتدت على وجودك هنا وقد افقدك اذ رحلت».

«كما تفقد قطعة صغيرة او عصفوراً غريداً؟».

«لا احد منها قادر على رفع ضغط دمي».

«احقاً؟».

قالتها وكأنها تنتحب.

«تعني انك تعتبرني جذابة جسدياً وبعد تفكير عميق ارتأيت الي

ساكون مريحة لك اكثر من بامبلا».

شعرت بالغثيان عندما لم ينكر آدم اتهامها. كان واثقاً جداً منها،

ومقتنعاً بأنها طوع بئانه فلم يزج نفسه بخطب ودها. مجرد افصاحه

عن رغبته بالكلام كان كافياً.

بقيت تامي مسيطرة على غضبها الجامح وقالت بحذر شديد:

«هل غفرت لي الخدعة التي مارستها عليك؟ وهل تغاضيت عن

كوني زوجة عديمة النفع وعن طباعي المتعجرفة؟».

تحرك بسرعة فائقة بحيث لم يتح لها فرصة التهرب من ذراعيه

الذين امتدنا اليها وشدناها الى صدره بوحشية وتمتم بصوت اجش:
«ايها الصغيرة العنيدة المتعجرفة! ساورتني فكرة اعادتك من
حيث اتيت، الى الرخاء والتسامح والتحرر من الموم، ولكن عندما
اضمك اليّ بهذا الشكل وبعين عطرك في انفي ويرتد قدك الياس بين
ذراعي وتساوي خفقات قلبك وخفقات قلبي، انسى كل جدل ضد
ابقائك هنا ولا اتذكر سوى ان خصرك خلق خصيصاً لكي يطوقه
ذراعي. كم انت مفرحة عندما تكونين سعيدة وتبين نفسك بدون
تحفظ. لم اعد قادراً على رفض ما عرضته عليّ بسخاء. اريدك زوجة
لي يا تامي!».

«اذا كان هذا ما رضيت به ميخ ماكسويل فان امتمائي اليها
يغفلني. كرم فاتق منك ان تتغاضى عن مساوتي العديدة وانها
لسداجة منك الظن اني سأقبل تضحيتك. لا يا لورد فوكس، لا اريد
البقاء هنا في معاناة وان امضي بقية حياتي بمئة لك واحمل ضميري
الشرف العظيم الذي اسبغته علي زوجي الغفور. تباً لك». 
شعرت بغصة في حلقها، غصة غضب وأسى لأن آدم لم يذكر مرة
واحدة العبارة التي تجعلها ترمي عند قدميه... عبارة حب.
وقف لا يأتي حراكاً يمدق في عينيها العسلتين وهو يهضم اهانة
رفضها لطلبه، ويعد ان ضاق المكان بالصمت الرهيب سالها:
«ما مدى تأثير ديرك على قرارك هذا؟».

في تلك اللحظة فاتها ما يلح اليه. بدت شابة صغيرة جداً،
تائهة وهي توازن جسمها على قدم واحد لأراحة قدمها من الألم
الحاد، وقد برزت وجنتاها المتوهجتان فوق ياقة ثوبها الابيض وقمها
برتحف من الألم.

NLO

قالت بصوت مرتجف:
«لا افهم اي شأن لديرك بناء».

كانت تعتبر ان الحمام القديم الطراز ضخماً الى ان اضطلع آدم
فيه بقامته المديدة ومنكيه العريضين وقد برز فكاه، اشبه بأسلافه قبل

غرض المعركة. اقلقتها رنة صوته المتعبة الحزينة بعد ان كانت تنوقع
منه سيلاً من العبارات اللاذعة.

وقال هاريس انك اتيت الى هنا للتسلية، واتي برزت في حياتك
عندما ابتداء نشاطك الاجتماعي يفقد رونقه. كنت مضطربة تبحثين
عن سبيل للتحويل والحرب من الحياة اليومية الرتيبة فراقت لك فكرة
تمضية فترة مع رجل جبلي، والملح لي ان زواجنا لم يكن ضرورياً لأنك
كنت سترافقيني في اية حال، ولكنه كان يجهل انه لم يكن لديك
الخيار تحت ضغطي وضغط والدك. لا شك انه احزنك اصراري
على اهتمامي بالمؤامرات، وانك ندمت على زواجك مني عندما ظهر
بيتي ديرك ليؤكد حنينك الشديد لبيتك، وقد فاجأتكما تلك الليلة
متعانقين».

قالها وكأنه يختنق، ووجدت صعوبة في الاحجام عن ضربه.
اخفض بصره وراح يحرك اصابعه وقد حيرته قوة عاطفته التي لو
عادت اليها ذكرى الماضي لدفعت به وهو الرجل الرزين الى التفكير
بالعنف، واطبق قبضة يده بعنف.
«لأول مرة في حياتي اشعر بغريزة الرجل البدائي للدفاع عما هو
له».

ورماها بنظرة استياء ثم تابع قائلاً:

«حتى في تلك الفترة الوجيزة من الزمن اصبحت اعتبرك من
ممتلكاتي، زوجتي، التي يجب الا يمرؤ رجل آخر على ملامستها.
امراتي، التي يجب ألا تسمح بمثل هذه الالفة».
اصفت تامي اليه صامتة ترتعد، ولكنها ارتدت عند ابدائه
الملاحظة الاخيرة وقد حز ذلك في نفسها وشعرت بألم حاد في
كاحلها.

قالت وهي تكاد ان تختنق:

«وهل صدقت ذلك عني؟ واصدرت حكمك علي مستنداً الى
دليل قدمه لك رجل حقود، والى تصورك الخاطيء لتصرف بريء».

واجاب بصوت اجش:

«ليس ذلك فحسب. اليس رغبتيك في الرحيل تثبت اهتمامات هاريس؟ كنت مرغماً على المجيء بك الى هنا، وكنت انت راغبة في ذلك، ولكنك تصرين الآن على الرحيل مع انني طلبت اليك البقاء».

شعرت بعبارات مريرة حادة تغلي في حلقها. انطلقت الى غرفتها وقد منعها الألم من محاولة شرح ما احست به من اهانة لقوله انه يريد لها لغاية في نفسه. آلمها عندما جرت لتخرج الحقيبة من الخزانة وهو لم ربما كان هائلاً في غير هذه الظروف، ولكنه الآن يبرز من خلال غمامة من الغضب والحياء صرخ بها:

«لن ترحلي!».

انطلق هذا الامر من ورائها، فاستدارت تامي متسلحة بعنفوانها وغضبها لخوض المعركة.

«اني ذاهبة الى منزلي يا آدم فوكس! عائدة الى حيث الحب والاحترام والى شخص يؤمن بي ويجعل كلمتي فوق كل ما عداها، وهذه مواصفات لن اجدّها هنا».

جيلة وهي نائرة، رمته بنظر ايتها الحاقدة وقالت:

«للأسف، لم يغم علي امتنانا عندما سمحت لي بالبقاء، ولكن بالرغم من كوني سافلة، عديمة النفع، منحلة الاخلاق فاني اطلب من زوجي ما هو اكثر من تنازل ضاغن. لقد دلتك يا لورد فوكس! عندما اتيت الى هنا كنت مذهولة، ولم ادرك ان وراء مظهرك اللفظ تجويفاً فارغاً مكان قلبك».

ارغمت عند قدميك ولييت جميع طلباتك وتحملت كل اهانة وكل صدّ منك على امل ان تبادلني شيئاً من الحب الذي اغدقه عليك. ولكنني مللت الآن، ستمتكت وستمت فوكس هول والمجتمع الريفي الذي يعتبر اللورد فوكس رمزاً للكمال وان كلمته هي القانون. ابق

في جحرك المحروس، ابقى متوارياً وراء الجدران الصوانية الدافئة التي لا يمكن للمشاعر الانسانية اختراقها! اقترن بعروس من ثلج وعش سعيداً في لحذك المغلف بالعواطف المكبوتة. بامبلا لن تثير فيك هاجس الحب او الغضب وهذا خير ما يناسبك اذ ليس افضل من زوجة فاترة لرجل متحجر».

سهما الاخير اصاب هدفه. ارتد رأس آدم المتعجرف الى الوراء وكأنه اصيب بضربة مؤلمة، فقام بحركة غاضبة وحاسمة. انقضت قبضته القاسيتان على كتفيها وضغطتا عليها بقسوة ورات في عينيه بريقاً غريباً، نأراً متأججة وزرقة خفيفة. لم تكن من حاجة الى العبارات التمهيدية. وشدها الى صدره بعنف.

ابتدأ الامر بعناق عقابي فيه كل ما اخترته رجل قوي العزيمة من حقد على نقطة الضعف لديه. كان عناقاً ساحقاً، كافياً للقضاء على جميع العواطف، غير انه حرك احاسيس عاصفة جاعمة. لم يلحظ اي منها هذا التبدل، فالعناق الذي ابتدأ بعاصفة من الكراهية تحول الى عناق عاطفي حنون وتشيت احدهما بالآخر وكأنهما غريقان تتلاعب بهما الأمواج الهائجة. تعانقا ثم انفصلا ليعودا الى العناق من جديد وفيهما جوع الى اللقاء وقد نسيا العدا والحقد وهما على اجنحة هذه العاطفة الجياشة.

صبت تامي كل ما في قلبها العاشق من عواطف واحاسيس، وسرها الشعور بالسيطرة عليه وادهشها ان تكون همساتها الرقيقة الخنونة قد حولت اللورد المتعجرف الى عاشق مستعطف متوسل. لم تكن بحاجة الى اقناع بأن ما يجري هو حلم من صنع خيالها نسجه ساعات طويلة من الحنين الى حلتك كهذا، وفيها كان يعانقها بحرارة سمعته يقول بصوت مرعف:

«احبك يا تامي، ابتها الساحرة الفاتنة. يا الهي! احبك كثيراً، اياك ان تتخلي عني يا تامي. قولي انك ستبقين!».

ازدادت اقتراباً منه وترقرقت عينها بدموع الفرح وعدم

التصديق:

ولن اتخل عنك ابداً يا حبيبي، خاصة أني عرفت انك تحبني.
لينك تعلم كم حنت الى سماع هذه الكلمات. انتظرت وابتغلت
ولكنني لم اسمع اقراوك الا الآن.

وفجأة، هي التي اصبحت غير واثقة ومتسائلة، تحاول تهدئة
نفسها وتركيز تفكيرها:

«امتأكد انت يا آدم؟ اممكن ان تكون هذه فترة طيش مؤقت
لديك؟ اعلم اني اجتذبت ولكن هذا لا يكفي. لا يمكن ان تحب
وتكره شخصاً في آن واحد. ماذا لو ندمت فيها بعد على عبارات
نفوت بها وانت في اتون العاطفة؟».

ويحتمل فائق جذب رأسها الى كتفه وكبح جماح نفسه وهو يرت
على وجهها المضطرب:

«اذا كان شعوري نحوك هو الازدراء فاني ايضاً ازدرى الطيور
المفرقة في صباح ربيعي والغمامات السابحة في الفضاء مجتازة القمم
الشاهقة، والبحيرات الزرقاء المستكنة بين وديان تحيط المضارب
الخضراء، وجنح الغراب الأسود وتخريد الكروان، والشمس
المناسبة بعظمة وراء الصخور صابغة كل صخرة منها بلونها الذهبي،
اني اكن الامتنان لكل منها بقدر ما اكن لك من حب، قولي هل هذا
يطمئنك؟».

المفروض ان يكون ذلك كافياً، قال لها ان حبه لها يضاهي حبه
لبيته وحبه للحياة ومع ذلك بقي جزء صغير منها يرتعش.

دفنت رأسها في كتفه وقالت:

«ولكنك صدقت كل ما قاله ستيف عني».

ردّه الحافيت دل على اضطرابه:

«شئت ان اصدق اقواله وحاولت جاهداً ان اقنع نفسي
بصدقها».

نظرتها اليه آتة فأكمل متمهلاً:

«كنت اعلم انه ليس من حقي ان ابقىك هنا، فرحت ابحت عن
اعداد لكي اعيدك. لا استطيع ان اوfer لك الحياة التي اعتدت
عليها، ولا الرفاهية ولا العيش الهنيء ولا الثروة. فانا رجل فقير
بالنسبة الى والدك. مع ان طموحاتي كبيرة فاني لا املك املاً في
المستقبل بحيث استطيع مضاهاته في النفوذ. لا استطيع ان اوfer لك
ما لا تملكين. كرامتي تمنعني من الطلب اليك البقاء زوجة لي. حبي
لك دفعني الى هذا التصرف».

انطلقت زفرة كبيرة من اعماقها. كان يجدر بها ان تدرك ذلك. ما
كان يجب ان تتعلمي عن كل ذلك وهي تعلم مدى اعتزازه بنفسه
وعجرفته الموروثة ورغبته في اعطاء ما هو الأفضل.

«يا آدم الغضب الرائع المتعجرف! الا تعلم يا اعز حبيب انك
الوحيد الذي يستطيع ان يهني كل ما اتقى في هذا العالم؟».

بدت عليه الحيرة وقال:

«ما هو الذي تتمنين؟ سأحققه لك حتماً اذا كان باستطاعتي».

التصقت به الى ان اصيحت بمثابة ضلع اضافي من ضلوعه
ووقفت على رؤوس اصابعها وهمست في اذنه:

«ارجوك يا بارون فوكس، اني اريد ثلاث بنات وسبعة ابناء».

WWW.LIILAS.COM